حواديت
من صفحات التاريخ

طارق يوسف

حواديت من صفحات التاريخ

طارق يوسف

فبراير 2023

جميع حقوق الطبع محفوظة ـ يحظر نشر أي جزء من مادة الكتاب دون موافقة خطية من الكاتب.

رقم الإيداع 7201 / 2023 م

الترقيم الدولي 3 – 5035 – 94 – 977 - 978

حواديت من صفحات التاريخ

طارق يوسف

إهداء..

الـى مـن قـدموا الـدعم لإصـدار هذا الكتاب:

الإعلامي.. بهي الدين شعيب

زوجتي.. أسماء أبوعيش

الاديب.. د. أحمد الخميسـي

حواديت العثمانلية..

شارع طومان باي.. وشارع سليم الاول

في حي الزيتون بقاهرة المعز، يقع شارع طومان باي، في جوارٍ غير منطقي مع شارع سليم الأول.

شارعان لا يمكن أن يتجاورا، ولا يصح لهما ذلك (اللهم إلا إذا كان هذا الجوار بين المقتول وقاتله دليل آخر على مكر التاريخ) فسليم الأول هو الغازي العثماني الذي احتل مصر المحروسة، بعد قتال دام أشهرا، خاض خلالها السلطان طومان باي قتالاً شرسا، جمع فيه ما كان تبقى من المماليك بعد هزيمة السلطان الغوري في مرج دابق، بالقرب من حلب، وساند طومان باي "العامة والغوغاء ونوتية بولاق (النوتي: ملاح أو بحار) والزعر (الرعاع المتمردون من العوام، واحيانا الشطار والبعيارين) والحرافيش ومساتير الناس من المصريين. لكن الخيانة لعبت لعبتها المعتادة، لينتصر الغازي المحتل، ويعلَّق السلطان طومان باي مشنوقًا على باب زويلة".

سليم شاه يدخل قاهرة المعز محتلا

بعد شنق طومان باي، آخر سلاطين مصر المحروسة، فقدت مصر استقلالها النسبي ــ

الاستقلال بمقاييس ذلك الزمان ــ وأصبحت منذ ذلك اليوم ولاية تابعة للباب العالي العثماني. منذ ذلك اليوم عايشت مصر ما لم تعايشه من قبل، وعانت ما لم تعاينه من قبل، من ظلم وتجبر، وانحلال اقتصادي، وتخلف اجتماعي لقرون كاملة.

يصف بن إياس ما فعله جند ابن عثمان بمجرد دخولهم إلى القاهرة على النحو التالي: "ثم دخلوا جماعة من العثمانية إلى الطواحين وأخذوا ما فيها من البغال والأكاديش (نوع من الخيول مرغوبة لصبرها على السير الحثيث وسرعة المشي)، وأخذوا جمال السقايين. وصارت (العثمانية) تنهب ما يلوح لهم من القماش وغير ذلك، وصاروا يخطفون جماعة من النساء والصبيان المردة والعبيد السود، واستمر النهب عمالاً في ذلك اليوم إلى بعد المغرب، ثم توجهوا إلى شون القمح التي بمصر وبولاق نهبوا ما فيها من الغلال..... وفي هذه الأيام تزايد الأذى من عسكر ابن عثمان، فكانوا يخرجون وقت صلاة الصبح ويتوجهون إلى الضياع التي حول الخانقاه (المكان الذي ينقطع فيه المتصوف للعبادة)، فيحشون ما فيها من الزروع من البرسيم والفول، فيطعمونه إلى خيولهم في كل يوم، ثم صاروا

يأخذون دجاج الفلاحين وأغنامهم وأوزهم، حتى أبوابهم وخشب السقوف الذي هناك".

وبعد دخوله القاهرة بيومين، نادي السلطان سليم شاه في بعض أحياء المدينة، بأن سكان المنازل في هذه الأحياء عليهم إخلاء بيوتهم، فخرجت الناس من بيوتها، وهجم عليهم جند ابن عثمان وسكنوا فيها، حتى صارت الحارات والأزقة مزدحمة بالناس، "وصاروا كالجراد المنتشر من كثرتهم، من الصليبة إلى جامع قوصون إلى قناطر السباع إلى داخل باب زويلة، وما خلا منهم موضع في المدينة..... ثم إن العثمانية طفشت في العوام والغلمان من الزعر وغير ذلك، ولعبوا فيهم بالسيف، فصارت جثثهم مرمية على الطرقات من باب زويلة إلى الرملة ومن الرملة إلى الصليبة إلى قناطر السباع إلى الناصرية إلى مصر العتيقة، فكان مقدار من قتل في هذه الوقعة من بولاق إلى الجزيرة الوسطى إلى الناصرية إلى الصليبية فوق العشرة آلاف إنسان، في مدة هذه الأربعة أيام".

وفـي أثنـاء إقامـة سـليم الأول بمصـر، نقـل إلـى القسطنطينية أكثرَ ما فـي القلعـة ومنـازلِ الأمـراء والســلاطين والمســاجد والزوايــا والأربطــة مــن النفـائس والـذخائر والكتـب حتـى أعمـدة الرخـام ومُركَّباته.

يقول ابن إياس: "..... وأشيع أن ابن عثمـان لمـا طلع إلى القلعة، وعرض الحواصل التي بهـا فـرأى خيمـة المولـد فأباعهـا للمغاربـة بأربعمائـة دينـار، فقطعوهـا قطعًـا وأباعوهـا للنـاس سـتائر وسـفر. وكانت هذه الخيمة من جملة عجائـب الـدنيا، لـم يعمـل مثلهـا فـي الـدنيا قـط، وكانـت علـى هيئـة القاعة، ولها أربعـة لـواوين وفـوقهم قبـة بقمريـات والكـل مـن قمـاش، وكـان فيهـا تقاصـيص غريبـة، وصنايع عجيبة، لم يعمـل الآن مثلهـا أبـدا، فكانـت إذا نصبت أيام المولد يحضرون بجماعة من النواتية نحو مـن خمسـمائة إنسـان حتـى ينصـبونها فـي الحـوش السـلطاني... وكانـت مـن جملـة شـعائر المملكة فاتباعت بأبخس الأثمان، ولم يعـرف ابـن عثمان قيمتها، وفقدها الملوك مـن بعـده، فحصـل منه الضرر الشامل، وهذا من جملة مساوئه التي فعلها بمصر.

"ونقل من مصر إلى القسطنطينية كل أبناء السلاطين وأكثر المقدمين والأمراء والخليفة العباسي، بعدما تنازل له عن الخلافة، وأكثر العلماء والقضاة وكل من له نفوذ وإمرة بمصر. ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات المشهورين بإجادة العمل فيها من كل الطوائف، فجمعوا منهم نحو ألف صانع ونقلوهم إلى الأستانة لينشئوا الصناعات الدقيقة فيها، حتى قيل إنه بطل في مصر بذلك نحو 50 صناعة، فكان كل ذلك سببًا في تأخُّر مصر في كل المجالات."

ولم يكن ما فعله من نهب في مصر امرأ جديدا غير معهود في سياسة وطباع ابن عثمان، فما فعلة بمصر فعل مثله عندما هزم الفرس، "فدخل السلطان سليم تبريز، عاصمة الفرس في ذلك الوقت، وأمر بإرسال ألفٍ من أمهر صناعها إلى القسطنطينية". فسياسة النهب نهج ثابت لابن عثمان.

الخلافة العثمانية

في العصور الوسطى، كانت البلاد في العالم بقاراته الثلاث المعروفة في ذلك الوقت (أفريقيا وآسيا وأوروبا) تحكم بأسر حاكمة، يحملون ألقاب:

الملـــك، والســـلطان، والإمبراطـــور. أمـــا العـــالم الإسلامي فقدم لقب الخليفـة لتسـمية الحـاكم، وكان الخليفة في عصر الخلفاء الراشدين يقصد به ان الحـاكم يخلـف مـن سـبقه حتـى رسـول الله (خليفـــة رســـول الله) إلـــى أن ســـن الحليفـــة العباسـي أبو جعفر المنصور سنة جديـدة، فـأطلق مفهوم ان الحاكم إنما هو خليفة لله جل وعلا في أرضه يستمد سلطاته من الله. والتي عرفـت فـي علم السياسة بنظرية (الحق الالهي).

ومما جعل لاحتلال مصر أهميـة تاريخيـة عظمـى، أن "المتوكـل علـى الله"، آخـر ذريّـة خلفـاء بنـي العبّـاس، الـذي أقـام أجـداده بالقـاهرة بعـد الغـزو المغولي لبغداد سنة 1258، فأصبحت مصـر هـي مقر الخلافة العباسية، وكانـت لـه الخلافـة بمصـر اسمًا، تنازل عن حقه في الخلافة الإسلامية إلى السـلطان سـليم، وسـلّمه الآثـار النبويـة، وهـي بيرق وسيف وعباءة نبي الإسلام "محمد بن عبـد الله" عليه الصلاة والسلام.

ومن ذلك التاريخ حمل كل سلطان عثمـاني لقـب "أميـر المـؤمنين وخليفـة المسـلمين". وبعـد أن أصبح السلطان سـليم شـاه خليفـةً للمسـلمين، خلـع علـى نفسـه لقـب: "ملـك البـرّين، وخاقـان

البحـرين، وكاســر الجيشــين، وخــادم الحــرمين الشريفين".

لماذا رواية ابن إياس موضع ثقة

يقول ابن إياس في مؤلفه (بدائع الزهور في وقائع الـدهور): كـان يشـاع العـدل الزائـد عـن أولاد ابـن عثمـان وهـم فـي بلادهـم قبـل أن يـدخل سـليم شاه إلى مصر، فلم يظهـر لهـذا الكـلام نتيجـة ولا مشــي ســليم شــاه فــي مصــر علــى قواعــد الســلاطين الســالفة بمصـر، ولـم يكـن لـه نظـام معروف لا هو ولا وزراؤه ولا أمراؤه ولا عسكره، بـل كانوا همجًا لا يعرف الغلام من الأستاذ. ولما أقـام ابن عثمان بالقلعة، صار زبل الخيل هناك مفروشًـا على الأرض يغطيها، وأخرب غالـب الأمـاكن التـي بالقلعة، وفك رخامها ونزل به في مراكب يتوجهون به إلى القسطنطينية"

ثم يوجز شهادته عن ابـن عثمـان واحتلالـه لمصـر في كلمات شـديدة الدلالة: "ولم تقاس أهل مصـر شـدة مثل هذه قـط، إلا أن كـان فـي زمـن البخـت نصر البابلي لما أتي من بابل وزحـف علـى الـبلاد بعساكره وأخربها وهدم بيت المقـدس، نـم دخـل إلى مصر وأخربها عن آخرها وقتل من أهلها مـا لا

يعد ولا يحصى، حتى أقامت مصر أربعين سنة وهي خراب ليس بها ديار ولا نافخ نار، فكان النيل يطلع وينفرش على الأرض ويهبط فلا يجد من يزرع الأراضي عليه ولا ينتفع به، لكن هذه الواقعة لها فوق الألفي سنة قبل ظهور عيسى بن مريم عليه السلام. ثم وقع مثل ذلك في بغداد في فتنة هولاكو ملك التتار لما زحف على بغداد وأخربها وأحرق بيوتها، وقتل الخليفة المستعصم بالله وقتل أهلها، واستمرت من بعد ذلك خرابًا إلى الآن. فوقع لأهل مصر ما يقرب من ذلك، وما زالت الأيام تبدى العجائب".

عندما جاء ابن عثمان إلى مصر ودخلها محتلا، كان ابن إياس يبلغ من العمر 69 عاما، وتوفى عام 1523، أي بعد 6 سنوات من سقوط مصر في يد الترك. وكان العثمانيون في أوج قوتهم وبطشهم، لكنه لم يخف وسجل شهادته عما رآه من أهوال اقتحام وغزو العثمانيين لمصر، وكان الأولى به والأكثر منطقية، إذا أراد أن يدلس أو يكذب أو يزيف التاريخ، أن ينافق الحكام الأقوياء شديدي الظلم ـ حسب وصفه لهم ـ ليأمن شرهم بالصمت، على الأقل، لكنه روى الأهوال التي شاهدها وعاينها بنفسه، والتي وصلت لاقتحام الأزهر الشريف،

ومسجد ابن طولون، وجامع الحاكم، وإحراق جامع شيخو، وتخريب ضريح السيدة نفسية ومسجد الإمام الشافعي، كل هذا شهده المؤرخ المصري ورواه في عز جبروت العثمانيين، ما يجعل شهادته الأقرب للحقيقة، ومصدرٌ للثقة.

المحروسة.. ثلاثة قرون من التخلف

"..... قيل إن صفته، حليق الذقن، وافر الأنف، واسع العينين، قصير القامة، في ظهره حنية، وعلى رأسه عمامة صغيرة، ويلبس قفطانا مخملا، وعنده خفة ورهج، كثير التلفت إذا ركب الفرس، وقيل إن له من العمر نحو أربعين سنة أو دون ذلك، وليس له نظام يعرف مثل نظام الملوك السالفة، غير أنه سيء الخلق سفاك للدماء، شديد الغضب، لا يراجعه أحد في القول"..... "ومما أشيع عنه أنه قال في بعض مجالسه بين أخصائه وهو بالشام: إذا دخلت إلى مصر أحرق بيوتها قاطبة وألعب في أهلها بالسيف". (ابن إياس، في وصف سليم شاه بن عثمان...)

سليم شاه خليفة لا عهد له ولا أمان

عندما أمر الدفتردار (أكبر منصب للشؤون المالية في الدولة العثمانية، يقابله في يومنا وزير

المالية.) بحبس نساء أمراء المماليك الذين قُتلوا أو هربوا واختفوا بعد هزيمة طومان باي، وكان حبسهم بغرض أن يعترفوا بأماكن الثروات المخبأة، والتي كانت مملوكة للأمراء... "أشيع" أن السلطان سليم شاه لما بلغه ما يفعله الدفتردار، أمره بإطلاق سراح نساء الأمراء من الحبس والكف عن ملاحقتهن بحثًا عن ثروات أزواجهن، "فارتفعت له الأصوات بالدعاء، فلم يظهر لهذا الكلام نتيجة فيما بعد، واستمرت المصادرات عمالة كما كانت، وازدادت أضعافًا فوق ما كانت".. وغني عن القول إن أيٍ من موظفي سليم خان لا يمتلك الجرأة لمخالفة أوامره، فاستمرار ملاحقة زوجات الأمراء كان بأوامر منه، فهذا كان دأبه عادة... يعطي الأمان ثم يفعل عكس ما تعهد به، والأمثلة على ذلك كثيرة...

فكان ينادي كل يوم في القاهرة بالأمان والاطمئنان، والنهب والقتل عمال من جماعته لا يتوقف، "وحصل منه للناس الضرر الشامل".

وعندما نادى بالأمان للمماليك الذين هربوا واختفوا بعد هزيمتهم، صدقه بعض منهم وظهروا وسلموا أسلحتهم، ولما عُرضوا أمامه، أمر بالقبض عليهم وإيداعهم القلعة... ثم ما لبث أن

أمر بقطع رؤوسهم جميعًا وتعليقها على حبال بالأسواق.

لقد كانت مدة إقامة ابن عثمان بمصر ثمانية أشهر إلا أياما، وعندما خرج من مصر متوجهًا إلى اسطنبول مارًا بالشام نادى بالأمان لأهل الشام ونائبها وحاميتها إذا سلموا القلعة دون قتال، فنزل إليه نائب قلعة الشام رافعًا منديل الأمان، فقتله ابن عثمان وقتل معه نحو أربعين أميرًا من أمراء الشام.

دولة احتلال.. وليست خلافة إسلامية

في مدة إقامة ابن عثمان بمصر لم يجلس بقلعة الجبل ليباشر أمور الحكم وينصف مظلومًا من ظالم، كما كان يفعل كافة السلاطين والملوك السابقين، بل ترك أمور الحكم والبلد لوزرائه، ذلك انه كان مشغولاً بلذاته، فأقام بالمقياس على النيل طوال فترة وجوده بمصر تقريبا، يشرب الخمر ويسكر يحيط به الولدان المردة... فبحسب ابن اياس: "كان ابن عثمان لا يظهر إلا عند سفك دماء المماليك الجراكسة..... وأما عسكره فكانوا يتجاهرون بشرب الخمور في الأسواق بين الناس، ولما جاء عليهم شهر رمضان فكان غالبهم

لا يصوم ولا يصلي في الجوامع ولا صلاة الجمعة إلا قليل منهم، ولم يكن عندهم أدب ولا حشمة، وليس لهم نظام يعرف، لا هم ولا أمراؤهم ولا وزراؤهم، وهم همج كالبهائم".

وأصبح خطف العثمانيين للسيدات والصبية الصغار واغتصابهم أمرًا منتشرًا... وبحسب ابن إياس: "... حتى قيل إنهم خطفوا امرأة عند سلم المدرسة المؤيدية وقت الظهر، وفسقوا بها جهارًا عند سبيل المؤيدية تحت دكان الذي يبيع الكعك، والناس ينظرون إليهم وهم يفسقون بها ولم يجسر أحد من الناس أن يخلصها منهم".

حرمان مصر من ثرواتها

عندما غادر ابن عثمان مصر لم يترك بها أي مصادر للثروة، فجردها من أية أصول يمكن أن تحفظ على شعبها حياته... فبعد إن نهب سليم شاه كل ما وجده في طريقه من نفائس، قام جنده وعسكره بالاستيلاء على ما تبقى في جيوب العامة والزعر والتجار وأرباب الحرف، وبيوت مساتير الناس... فكانوا يقفون بالشوارع يقطعون الطريق على المارة، يوقفونهم "ويقولون لهم: اشتروا أنفسكم منا من القتل، فيأخذون منهم

بحسبما يختارونه من المبلغ..، وكانوا يهجمون على بيوت مساتير الناس فينهبون ما فيها من القماش الفاخر، وغيره من كل ثمين وغال، "فانفتحت للعثمانية كنوز الأرض بمصر من نهب قماش وسلاح وخيول وبغال وجوار وعبيد، وغير ذلك من كل شيء فاخر، واحتووا على أموال وقماش ما صادفوها قط في بلادهم، ولا أستاذهم الكبير (يقصد سليم شاه)".

وعندما خرج سليم شاه ابن عثمان من مصر كان يصطحب ألف جمل تحمل ذهبًا وفضة، هذا علاوة على ما غنمه من التحف والسلاح والصيني والنحاس والخيول والبغال والجمال وغير ذلك، "وأخذ منها من كل شيء أحسنه، مالا فرح به آباؤه ولا أجداده من قبله أبدا"، كما أن وزراءه وكذلك عسكره نهبوا من الأموال ما لا يحصى، "وصار أقل ما فيهم أعظم من أمير مائة مقدم ألف، مما غنمه من مال وسلاح وخيول وغير ذلك".

لم يكتف ابن عثمان بكل ما نهبه هو وعسكره من مصر، بل إنه بمجرد وصوله إلى الشام أرسل إلى خاير بك (الذي نصبه واليًا على مصر) يطلب منه أربعين ألف إردب قمح وشعير، يرسلها له في

مراكب عن طريق البحر إلى الشام. فأمر خاير بك رجاله بان يجمعوا القمح والشعير من الفلاحين والمخازن والدكاكين وأي من كان يملك قمحًا أو شعيرًا حتى يرسلوا لابن عثمان طلبه.

تجريف مصر ثقافيا

اختار ابن عثمان المهرة من أرباب الصناعة وأرسلهم إلى اسطنبول، فتدهورت الصناعات القائمة بمصر، واختفت مظاهر كثيرة من الصناعات الحرفية التي كانت تمثل وجه مصر الخاص... فلم تَعُدْ مصر بعد دولة ذات أملاك عظيمة كما كانت من قبل، بل صارت ولاية لا ثروة لديها، وهذه الثروة ذاتها أخذت في الاضمحلال بسبب الإهمال في مرافق الزراعة والصناعة تحت حكم الباب العالي العثماني، كل ذلك أضعفَ كثيرًا من ثروة البلاد فصارت لا تقوى على إنشاء الآثار العظيمة التي كانت تقام من قبل، فلم تعد الجوامع تُبنى بتلك العظمة التي نشاهدها في أبنية القرون السالفة، كذلك قلَّت الدقة في البناء، لقلة الثروة من جهة، ولتقهقر الصناعات من جهة أخرى، وليس من آثار هذا العصر ما يلاحَظ عليه آثار الدقة إلا القليل.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من حرمان مصر من مقومات التقدم، بل إن العثمانيين استولوا على ما فيها من كتب نفيسة، فدخلوا الجامع الأزهر واستولوا على ما فيه من كتب لا تقدر بثمن ولا يمكن تعويضها، وفتحوا خزائن المجاورين واستولوا على ما بداخلها... يقول الجبرتي: "ثم إن الوزراء استدرجوا لأخذ الكتب النفيسة التي في المدرسة المحمودية والمؤيدية والصرغتمشية (أسماء مدارس أنشئت في العصر المملوكي، ونسبت أسماؤها الي اسم الأمير الذي انشأها)، وغير ذلك من المدارس التي فيها الكتب النفيسة، فنقلوها عندهم ووضعوا أيديهم عليها، ولم يعرفوا الحرام من الحلال في ذلك".

كما نقل سليم شاه بن عثمان إلى إستانبول جملة من المشايخ والفقهاء واعيان التجار، "وخرج الى اسطنبول، ابن شقيرة التاجر الذي من مرجوش، ومن تجار الحرامزة وغير ذلك من التجار والأعيان من مشاهير الناس، وخرج جماعة من الفقهاء وأعيان التجار ممن تعين خروجهم. ثم تبعها طائفة أخرى، وكانت هذه الواقعة من أبشع الوقائع المنكرة التي لم يقع لأهل مصر قط مثلها فيما تقدم من الزمان". وهكذا جرد مصر حتى من

فقهائهـا وتجارهـا. أعيـان التجـار ذوي العلاقـة بالتجارة مع الهنـد والحبشـة وغيرهـا مـن البلـدان ذات العلاقات التجارية بمصر، فقلت موارد مصر من التجارة الخارجية إلى حدها الأدنى، كمـا أن وقـف التجارة الخارجية حرم مصر مما يمكـن أن نسـميه اليوم بالتبادل الثقافي، فالتجارة في هذه الأزمنـة كانت بمثابة تبـادل ثقـافي بـين الشـعوب، ولـيس تبادل ثروة فقط.

وقبيل رحيله وضع ابن عثمان خاير بك واليًـا علـى مصر، التي بعد أن كانـت دولـة مسـتقلة أصـبحت ولاية تابعة للباب العالي.. ("خاير بك" ذلك الخـائن الذي تآمر مع ابن عثمان، وكان له الدور الكبير في هزيمة الغوري وطومان باي نتيجة خيانته لهما)،

أصدر خـاير بـك (أو "خـاين بـك" كمـا كـان يسـميه المصريون) قرارًا بمنع خيال الظل، وهو أحد الفنون القديمة بمصـر، والغنـاء فـي الشـوارع، ومنـع زفـة العرسـان بعـد العشـاء، ومنـع فـتح الأسـواق بعـد المغرب، وأوقف تفريـق اللحـم فـي عيـد الأضـحى على الأمراء والعساكر والفقهاء والموظفين مثلمـا كان الحال أيام الدولـة المملوكيـة.... وهكـذا بـدأت تهتز هوية المصريين، بالحجر على فنونهم، وتغيير طبـاعهم قسـرا، ومنـع مـا كـانوا يمارسـونه مـن

مبـاهج واحتفـالات تميـزهم عــن بـاقي شــعوب المنطقة.

على هذا النحو جرد "الخليفة العثماني" مصر من كل مقومات التقدم، اقتصاديًا وثقافيًا، فـي سـلوك لا يمكن أن يكون إلا لمحتل غاشـم. سـلوك دولـة توسـعية تسـعى لنهـب ثـروات الشـعوب التـي تحتلها..

المصادر:

ابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج5، الهيئـة المصـرية العامة للكتاب، 1984.

عمر الإسكندري وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قُبيل الوقت الحاضر، مؤسسـة هنـداوي للتعلـيم والثقافـة، 2014.

سليمان فياض، الوجـه الآخـر للخلافـة الإسـلامية، دار ميريـت، الطبعة الأولى، 1999.

حواديت بونابرت...

عندما ضج المصريون بالدعاء:

يا خفي الألطاف!

"في يوم 21 أكتوبر، وعند طلوع النهار، ظهر أن هناك بعض التجمعات في القاهرة. وعند الساعة السابعة صباحًا تجمع جمهور كبير عند باب القاضي، بغرض أن يتوجه الجميع إلى منزلي لتقديم عريضة شكوى، وفى هذه الأثناء وصل الجنرال "ديبوى"، وعندما رأى الفوضى واستحالة إيقافها بالروية أطلق طلقة من طبنجته ما أصاب الرعاع بحالة من الغضب العارم. وقد اندفع الجنرال "ديبوي" للهجوم مع حراسته ليفسح الطريق أمامه مسقطًا أرضًا كل من كان واقفًا أمامه، وعندها تلقى ضربة رمح تحت إبطه قطعت شريانه ولم يعش إلا 8 دقائق بعد ذلك. وقد اندلعت معارك بالبنادق في كل الشوارع، وراح الرعاع ينهبون منازل الأغنياء." (من خطاب نابليون لحكومته بعد إخماد ثورة القاهرة الأولى)

يا سلام من هذه الآلام

دخل نابليون القاهرة يوم 25 يوليو 1798، وقبل انقضاء ثلاثة أشهر اندلعت ثورة القاهرة الأولى.

فبعد أن وصلت الحملة الفرنسية إلى القاهرة، واستقرت الأوضاع فيها، قام بونابرت بتشكيل ما يسمى بـ"الديوان"، وكان يتكون من تسعة أعضاء من كبار شيوخ الأزهر والعلماء، وعلى رأسهم شيخ الجامع الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوي. كان الديوان يمثل همزة وصل بين شعب مصر وجيش الاحتلال، وكانت سلطة هذا الديوان استشارية ومقيدة بتعهد الأعضاء بعدم القيام بأيّ عمل يكون موجهًا ضد مصلحة الجيش الفرنسي. وعلى الفور بدأ جيش الاحتلال الفرنسي في ممارسة النهب والقتل وكبس البيوت وتفتيشها، والاستيلاء على المنازل بحجة الاحتياج لها لإدارة شئون البلاد. بدأ التذمر بين أهل مصر يتزايد يومًا بعد يوم وما زاد الطين بلة، ما فُرض عليهم من ضرائب وغرامات مغالى فيها، فكانت القشة التي قصمت ظهر البعير. يذكر الشيخ عبد الله الشرقاوي، في تحفة الناظرين: "وقامت عليهم "أي على الفرنسيين" أهل مصر بسبب طلبهم فرض غرامة على البيوت". وإلى جانب تذمر الأهالي واستيائهم من كل ما دار منذ دخول الفرنسيين مصر، كانت الدعاية للثورة والتحريض عليها، من جانب صغار المشايخ، لا تنقطع منذ ظهرت مظالم الفرنسيين.

/الأحد /الدامي..

وفي صباح يوم الأحـد 21 أكتـوبر، يقـول الجبرتـي: "اجتمع جمع غفير من حشرات الحسـينية، وزُعـر (جمع أزعر) الحارات البرانية ــ بحسـب تعبيـره ــ ولهم صياح عظيم ويقولون بصياح في الكلام: نصر لله دين الإسـلام، وانضم إليهم خلق كثيرون علـى شاكلتهم، حتى بلغوا نحو الألـف عـدًا وقصـد هـذا الجمع بيت القاضـي الكبيـر بقصـد أن يطلبـوا منـه التوسط لدى الفرنساويين في محو تلك الضـرائب والغرامـات التـي فرضـها..... ووافقهـم علـى ذلـك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عاقبة الأمـور، ولم يتفكر أنه في القبضة مأسور. ــ أيضًـا حسـب تعبير الجبرتي، ولم نصحح الأخطاء الإملائية.

خرج المصريون بكل مـا لـديهم مـن سـلاح وشـوم وحراب علي الجنود الفرنسيين يقتلوهم. وتحصنوا بأسوار الحـارات والأزقـة، ونصـبوا المتـاريس علـى مداخلها. فسارع نابليون باحتلال الأماكن المرتفعة ونصب مدافعه فوق مآذن جامع السلطان حسـن، وانهالـت القنابـل منـه ومـن القلعـة علـي الجـامع الأزهر، مبعـث الثـورة، وكـل مـا يحيطـه مـن بيـوت وحوانيــت... يقــول الجبرتــي: "فضــربوا بالمــدافع والبنبــات، علــى البيــوت والحــارات، وتعمــدوا

بالخصوص الجامع الأزهر، وجردوا عليه المدافع والقنبر، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين، كسوق الغورية والفحامين، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه، ولم يكونوا في عمرهم عاينوه، نادوا: يا سلام من هذه الآلام، يا خفي الألطاف نجنا مما نخاف، وهربوا من كل سوق، ودخلوا في الشقوق" ـ حسب تعبير الجبرتي.

موقف كبار المشايخ والعلماء من الثورة

نبدأ بموقف الجبرتي، وهو بالتأكيد من علية القوم ومثقفي عصره، فنشير إلى أن العبارات التي استخدمها الجبرتي حال سرده الأحداث ووصفه الثوار، تفضح بصورة جلية انحيازاته، وإلى أي الأطراف يميل، فهو يصف الثوار بـ"حشرات الحسينية، وزُعر الحارات البرانية". ثم يعرّض بالمعممين ــ الذين كانوا قيادة الثورة ــ حين يصفهم بالغفلة والرعونة وعدم تقدير العواقب، فيقول "لم ينظر في عاقبة الأمور، ولم يتفكر أنه في القبضة مأسور". وأخيرًا، يقول إن الثوار هربوا "ودخلوا في الشقوق"، ولا يخفى عن كل ذي بصيرة دلالة هذا التعبير.

أما أعضاء الديوان وكبار المشايخ فقد كان موقفهم لا يتعدى المقاومة السلبية في أحسن الأحوال، والوساطة والتوسل حال وقوع ظلم على أحد المشايخ أو مساتير الناس، ولا أكثر من ذلك.. ولننابع، على سبيل المثال، كيف يبرر الشيخ عبد الله الشرقاوي موقفه وموقف زملائه من أعضاء الديوان، حيث يقول في تحفة الناظرين: "والسبب الذي أوجب لأهل مصر وقراها بعض الانقياد إليهم عجزهم عن مقاومتهم بسبب هروب المماليك الذين معهم آلات القتال، وإنهم عند قدومهم ذكروا أنهم ليسوا نصارى لأنهم يقولون إن الله واحد والنصارى تقول بالتثليث، وإنهم يعظمون محمدا ويحترمون القرآن".... إلى أخر هذا الهراء الذي لم يقنع أهل مصر ولم يمنعهم من الثورة.

قد يكون الشيخ الشرقاوي محقًا فيما ساقه حول العجز بسبب قلة آلات القتال، لكن في الجهة المقابلة هناك من صغار المشايخ، والمجاورين، وغيرهم من العوام، من كونوا تنظيمًا "سريًا" لقيادة الثورة، (سنأتي إلى ذلك فيما بعد).

أما مسألة أن بونابرت ورجاله يعظمون النبي محمد ويحترمون القرآن، فلنرجع إلى رواية الجبرتي عما فعلوه بالجامع الأزهر: "ثم دخلوا

إلى الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزاين الطلبة والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع والأواني والقصاع والودايع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف على الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها، وأحدثوا فيه وتغوطوا، وبالوا وتمخطوا، وشربوا الشراب وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه، ومن ثيابه أخرجوه".

فتبرير الشيخ الشرقاوي بأن الفرنسيين يعظمون محمدًا ويحترمون القرآن، سقط مع أول طلقة مدفع باتجاه الأزهر الشريف، ومع دخول الجند إلى صحنه ومقصورته، وربط خيولهم بقبلته، وما فعلوه بالمصحف.

التنظيم السري يقود الثورة

يؤكد عبد الرحمن الرافعي أن "دعاة الحركة تعاهدوا على الاجتماع ليلة الأحد 21 أكتوبر 1798، لرسم الخطة الواجب إتباعها، فاجتمعوا وكان عددهم في ذلك الاجتماع ثلاثين، فاتفقوا

رأيًا على البدء بالعمل في اليوم التالي، وأزمعوا إقفال الدكاكين، ودعوة أكبر عدد من التجار والصناع للذهاب بجمع كبير من الشاكين إلى مركز القيادة العامة لرفع الصوت احتجاجًا على الضرائب الجديدة..” وبذلك تحدث في المدينة حركة يكون منها الشغب والهياج فتكون مقدمة للثورة. هنا نجد أن الرافعي يقرر بوضوح أن ثورة القاهرة الأولى كان لها قيادة منظمة، وبلغة عصرنا هذا، نستطيع أن نقول إن هذه القيادة عقدت اجتماعًا في الليلة السابقة لاندلاع الثورة، رتبت في هذا الاجتماع: ساعة الصفر، وكيفية التحرك، والى أين تتجه الجماهير، وماهية المطالب، ونوعية الشعارات المرفوعة..

ولنعد إلى خطاب نابليون لحكومته بباريس: “... وفى المساء كانت المدينة هادئة عدا الحي الذي به الجامع الكبير الجامع الأزهر، حيث كان المجلس الذي يقود الثوار، الذين وضعوا المتاريس في الشوارع”.. يقر نابليون بوجود مجلس يقود الثوار. لكن ما جاء بخطابه هذا بعد أسطر قليلة يحدد بشكل قاطع من هم الثوار، وكيف يفكرون، وممن يتخوفون.. فيستطرد: ”وعندما تقدم أعضاء الديوان والشيوخ الرئيسيون ورجال الدين أمام

المتاريس بحي الجامع الكبير، رفض الثوار السماح لهم بالدخول، واستقبلوهم بطلقات البنادق"..

إذن لم يكن الثوار يأمنون جانب أعضاء الديوان وكبار المشايخ، ولم يطلعوهم بالتأكيد على ما يخططون له، فالذي لا يمكن إنكاره أن هذا التنظيم أو المجلس كان سريًا، فلم يستطع جواسيس بونابرت ـ وهم كثر ـ أن يعلموا بشأنه، وإلا ما كان لبونابرت وجنرالاته أن يُؤخَذوا على حين غرة، وإلا كانوا استعدوا لإجهاض الثورة قبل أن تفاجئهم.

يقول الرافعي إن "قادة الثورة نظموا حملة دعائية ناجحة ضد أعضاء الديوان من كبار المشايخ، حيث يتهمونهم بممالأة الفرنسيين، حتى لا يستمع الجمهور لنصائحهم في الإخلاد إلى السكينة، وقد افلحوا في إحراج مركز أعضاء الديوان فأخذت منزلتهم تتضعضع في نفوس الشعب"، إذن لم يكن هذا المجلس أو التنظيم الذي يقود الثوار يتكون من كبار المشايخ وأعضاء ديوان بونابرت، بل من مجموعة من صغار المشايخ والمجاورين بالأزهر وبعض التجار والعوام.

ثوار بلا شواهد قبور

حتى لا تصبح قبورهم مزارات لأهل مصر، وحتى لا يكونوا مثالاً يحتذيه من يأتون بعدهم ضد أي قوة احتلال، حرص بونابرت وجنرالاته على ألا يكون لمن أُعدموا في هذه الثورة شواهد قبور..

فبعد إخماد الثورة بدأ البحث عن قياداتها وأعضاء المجلس أو التنظيم، ورغم سرية عمل المجلس وإخفاء نشاطه قبل قيام الثورة، إلا أنه سرعان ما انكشفت هوية الثوار، فلا يمكن إخفاء نشاطهم أثناء الحدث والفعل. بدأ البحث عن الشيخ سليمان الجوسقي، شيخ طائفة العميان، الذين قاموا بدور فعال وقتلوا الكثير من الجنود الفرنسيين عن طريق اصطيادهم من داخل الأزقة والحواري (لست أدري كيف فعلوها!)، إلى جانب القبض على ستة مشايخ "ليسوا من كبار المشايخ أو المشهورين"، وأمر بونابرت بوضعهم في القلعة، وفي المساء أمر بقطع رؤوسهم وإلقاء جثثهم في النيل.... وما حدث مع هؤلاء السبعة تكرر أيضًا مع غيرهم. والشواهد على ذلك كثيرة.... فمن مذكرات المسيو بوريين، سكرتير نابليون الخاص: "سيق المسجونون إلى القلعة، وكنت أتولى في مساء كل يوم كتابة

الأوامـر القاضـية بإعـدام اثنـي عشـر سـجينًا كـل ليلة، وكانت جثث القتلى توضع في زكائب وتغرق في النيل، واستمر ذلـك ليـال عديـدة، وكـان كثيـر من النسـاء ممن نفذ فيهن أحكام الإعدام الليلية".
ومن مـذكرات المسـيو بـوريين أيضـا: "بعـد إخمـاد الثورة ببضعة أيـام بعـث نـابليون بالضـابط كروازيـه، أحد أركان حربه، وأمره أن يهاجم قبيلة مـن البـدو كانت اعتدت على شـرذمة من جنودنا، وكان الأمر يقضـي بـأن يجمـع رءوس القتلـى فـي أكيـاس ليعرضـها علـى سـكان القـاهرة، فعـاد فـي اليـوم التالي ومعه عدد عديد من الحمير محملة بأكياس ملأى بالرؤوس البشرية، وفتحت هاتيك الأكيـاس، وأفرغ ما فيها أمام أعين الناس المجتمعين، وأنـي لا أسـتطيع أن أصـف بشـاعة ذلـك المنظـر، ولا القشـعريرة التـي أحسسـت بهـا عنـد رؤيتـه." وغريـب أن الجبرتـي لـم يـذكر شـيئًا عـن هـذه الحادثة، وما أظنها خفيت عليه .

ومن خطاب نابليون لرينيـه (أحـد جنرالاتـه): "فـي كل ليلـة نقطـع نحـو ثلاثـين رأسًـا أكثرهـا لزعمـاء الثـورة، وفـي اعتقـادي أن هـذا سـيعلمهم درسًـا نافعًا."

لكـن المصـريين لـم يتعلمـوا الـدرس الـذي أراد بونابرت تعليمه لهـم، فبعـد أقـل مـن عـام ونصـف العام اندلعت ثورة القاهرة الثانية، التـي اسـتمرت 33 يوما وكانت المسمار الأخير في نعش الحملـة الفرنسـية التـي خرجـت مـن مصـر خائبـة بعـد أن لقنها المصريون دروسًا لا ينساها التاريخ.

سوف نسرد أحداث ثورة القاهرة الثانية لاحقا بالتفصيل عندما نتناول سيرة البشتيلي وتاريخه المسكوت عنه

بونابرت يستخدم الدين ويخلطه بالخرافة

"بسـم الله الـرحمن الـرحيم، مـن أميـر الجيـوش الفرنساوية خطابًا إلى كافة أهـالي مصـر الخـاص والعام، نُعلمكـم أن بعـض النـاس الضـالين العقـول الخالين من المعرفة وإدراك العواقب سابقًا أوقعـوا الفتنة والشرور بين القاطنين بمصـر فـأهلكهم الله بسبب فعلهم ونيتهم القبيحـة، والبـاري سـبحانه وتعـالى أمـر بالشـفقة والرحمـة علـى العبـاد، فامتثلتُ أمرَه وصرتُ رحيمًا بكم شـفوقًا عليكم".

بهذه الافتتاحية بـدأ خطـاب نـابليون بونـابرت إلـى أهـل المحروسـة عنـدما قـرر أن يُعيـد تشـكيل الديوان، الذي كان قد عطل عمله بعد أحداث ثورة

القاهرة الأولى التـي انـدلعت فـي 20أكتـوبر عـام 1798م .

كانت مهمة هذا الديوان الوساطة بين شعب مصر والفرنسـيين، ولمـا أخمـد نـابليون ثـورة القـاهرة الأولى، أشاع في الـبلاد التقتيـل والتمثيـل بقـادة الثورة من المجاورين وصغار مشايخ الأزهر، فحكم على ستة مـنهم بالإعـدام، اقتيـدوا إلـى القلعـة، حيث ضُربت أعناقهم وأُلقـي بجثـثهم فـي النيـل، كما قتل الفرنسيون حوالي 2500 مصريًا، وفُرضت غرامات كبيرة على التجار و العلماء ورجـال الـدين ممن شجعوا و ساعدوا الثوار، كمـا عطـل نـابليون الديوان في نهاية أكتـوبر عـام 1798، عقابًـا لأهـل مصر الثائرين.

بعـد مـرور أقـل مـن شـهرين اكتشـف نـابليون أن تعطيل الديوان لم يكن بالقرار الصائب، فقد ظن أن المصريين يمكن أن يتعودوا، مع مرور الوقت، على التعامل مع الفرنسيين مباشرة دون واسـطة مـن شيوخ الأزهـر، لكـن الأيـام أظهـرت لـه مـدى كـره المصـريين للفرنسـيين بسـبب اسـتمرار محاولـة إخضاعهم بالحديد والنار، بإشـاعة أعمـال التنكيـل والإرهاب، وفرض ضرائب جديدة، وجبايـة الغرامـات المغالى فيها، ولم ينج من هذه السياسـة أي فئة

مـن أهـل مصـر، واكتـوى بنارهـا التجـار والعلمـاء ومسـاتير الناس والعوام وأهل القرى من الفلاحين على حد سواء.

وفى الوقت نفسـه كـان نـابليون يُعِـدُّ العـدة لغـزو سوريا واحتلالها، فكان عليه تأمين ظهـره قبـل أن يخرج في حملتـه لاحـتلال سـورية، ومـن ثـم لجـأ إلـى تهدئـة خـواطر المصـريين، بإعـادة تشـكيل الديوان.

عندما قرر نابليون التراجـع عـن قـرار حـل وتعطيـل الديوان، لم يكن يريد أن يشعر المصريون باضطراره إلى الرجوع عن قـراره، فوجـه خطابـه "إلـى كافـة أهالي مصـر الخـاص والعـام". وفـي هـذا الخطـاب حذا حذو كل من جاء قبله إلى مصر غازيًا أو فاتحًا أو حاكمًا، فاسـتخدم الدين وسـيلة لمحاولـة إقنـاع المصـريين بصـلاحه واهتمامـه بمصـالح الـبلاد والعباد، فدائمًا ما اسـتخدم الطغـاة والغـزاة الـدين لتمرير أغراضهم .

لكـن نـابليون تفـوق علـى مـن سـبقوه، فلـم يستخدم الدين فقط، بل خلط الدين بالخرافة، وهو العـالم بولـع العامـة بالخرافـات وذوي القـدرات الخارقة، فحاول إيهـام النـاس أنـه يسـتطيع قـراءة

الغيب والاطلاع على مكنون النفوس، فأنهي خطابه على هذا النحو:

"واعلموا أيضًا أني أقدر على إظهار ما في نفس كل أحد منكم لأنني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد أن أراه، وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده، ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعاينة أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يرد، وإن اجتهاد الإنسان غاية جهده ما يمنعه عن قضاء الله الذي قدره وأجراه على يدي، فطوبى للذين يسارعون في اتحادهم وهمتهم مع صفاء النية وإخلاص السريرة والسلام".

وتحطمت أحلام بونابرت على اسوار عكا

في أول أغسطس عام 1798، وقعت معركة أبي قير البحرية بين الأسطولين الفرنسي والإنجليزي، وأدت هذه المعركة إلى إبادة أسطول بونابرت، وبذلك انقطع طريق التواصل الوحيد بين الجيش الفرنسي في مصر والأراضي الفرنسية، فأصبح بونابرت حبيس الأراضي المصرية. وفي 2 يناير 1799، احتلت عساكر أحمد باشا الجزار "والي عكا" قلعة العريش، لم تكن العريش في يد

القوات الفرنسية، لكنها كانت منذ قديم الأزل جزءً من الأراضي المصرية، فكان هذا الاحتلال بمثابة اعتداء على الحدود المصرية، ويعد مقدمة للزحف على مصر، لذلك بدأ نابليون بالإسراع في تنفيذ خطته ـ المعدة سلفًا ـ باحتلال الشام. فلم تكن مصر هي الهدف الأوحد للحملة الفرنسية.

أحلام بونابرت

في عام 1789، أي قبل ما يقرب من عشرة سنوات من قيام الحملة الفرنسية على مصر، اندلعت الثورة الفرنسية، وكان من تداعياتها، أن أثرت بشكل حاسم علي الجغرافية السياسية في القارة الأوروبية والعالم بشكل عام، فقد ناصبت معظم الممالك الأوروبية فرنسا العداء. لقد خشيت كل أوربا من أن يصيب ممالكها ما أصاب فرنسا من اضطرابات سياسية، وإقامة نظام حكم جمهوري على أنقاض النظام الملكي الإقطاعي، ونزع امتيازات طبقة النبلاء. وكان من نتيجة ذلك نشوب صراعات عالمية، وحروب على امتداد أوروبا والشرق الأوسط، وقيام العديد من التحالفات.

ولما اشتد الصراع على النفوذ بين حكومة الثورة الفرنسية والإمبراطوريتين العثمانية والبريطانية،

لم تكن فرنسا قادرةً على مجابهة هذا الحلف بشكلٍ مباشرٍ، فقررت السلطات الفرنسية توجيه ضربةٍ استباقية لبريطانيا وحليفها العثماني، من خلال السيطرة على مصر وبلاد الشام. فلم يكن هدف الحملة الفرنسية احتلال مصر فقط، بل إن الوثائق الفرنسية تؤكد أن هدف الحملة الفرنسية كان أبعد من هذا بكثير. ويذكر دكتور محمد عبد الحميد الحناوي في كتابه "وثائق الحملة الفرنسية مصدر لتاريخ مصر الحديث" ما ورد بهذه الوثائق، فيقول: "إن بعض المسودات الخطية عن أهداف حملة الشرق على مصر، يتضح من قراءتها أن هدف الحملة الفرنسية لم يكن مصر فقط، بل إنها خطوة هامة للوصول إلى أراضي الدولة العثمانية عبر بلاد الشام، بغية تحقيق أهداف فرنسا في القضاء على تجارة الهند البريطانية عبر الطريقين البرى والبحري، والوصول عبر الأراضي التركية إلى روسيا للضغط على حكومتها وإجبارها على التحالف مع حكومة الثورة الفرنسية، أو على الأقل ضمان حيادها وعدم انحيازها للدول الأوربية الملكية، وبخاصة إمبراطورية النمسا."

لقد كانت أحلام بونابرت تتجاوز احتلال مصر ولا تقف عند هذا الحد، فقد كان يسعى لتكوين إمبراطورية شرقية عظيمة، يكون هو على رأسها، ثم يعود إلى باريس بعد أن يمتلك الشرق والغرب، ليُعيد ذكرى الإسكندر المقدوني ويتوج قيصرًا على كل تلك الممالك والأصقاع. يؤكد ذلك ما جاء في مذكرات بوريين، السكرتير الخاص لنابليون بونابرت، من أن نابليون التفت إليه وهما سائران بالقرب من الشاطئ أمام عكا وقال: "بوريين! إذا نجحت في فتح هذه المدينة، كما أعتقد أنني سأنجح، فإنني سأجد فيها كنوز الجزار "يقصد أحمد الجزار باشا والي عكا"، وأجد أسلحة تكفي لثلاثمائة ألف جندي، وعند ذلك أهيج أهالي سورية الذين يبغضون الجزار لظلمه، ويسألون الله صباح مساء أن أنجح في دخول عكا، ثم أسلح منهم جيشًا عرمرمًا، وأقصد دمشق وحلب، فينضم إليَّ القوم كمخلّص لهم من المظالم، ثم أسير بجيوشي لفتح الآستانة، وأنشئ في الشرق إمبراطورية عظيمة الشأن، تنقش اسمي على أحجار الأبدية، وربما عدت إلى باريس من طريق أدرنة وفيينا بعد أن أمحي من صحيفة الوجود بيت هابسبورج (لقب الأسرة المالكة في النمسا والمجر)".

في شهر يناير عام 1799م، شهر شعبان 1213هـ بدأت الاستعدادات للحملة على عجل، يقول الجبرتي: "وفيه كثر الاهتمام والحركة بسفر الفرنسيس إلى جهة الشام، وطلبوا وهيئوا جملة من الهجُن وأحضروا جمال عرب الترابين ليحملوا عليها الذخيرة والدقيق والعليق والبقسماط، ثم رسموا على الأهالي (أي فرضوا على الأهالي) عدة كبيرة من الحمير ،وكذلك عدة من البغال، فطُلب شيخ الحمارة وأُمر بجمع ذلك، وكذلك الركبدارية (بيت أو إسطبل الخيالة) أمرهم بجمع البغال، فاختفى غالب أصحاب الحمير، وخاف الناس على حميرهم فامتنع خروج السقايين الذين ينقلون الما (يقصد الماء) بالقِرَب على الحمير، وسقايي الجمال، والبراسمية، فحصل للناس ضيق بسبب ذلك."

الطريق إلى يافا

وفي يوم الأحد 10 فبراير 1799 "5 رمضان 1213" توجه الجيش الفرنسي إلى العريش. كانت القوات العثمانية والمماليك الفارون من مصر يحتلون العريش، فزحف عليها الجيش الفرنسي وواجه الجيش العثماني بها، ودار قتال شديد بين الفريقين انتهى بهزيمة العثمانيين والمماليك ليلة

15 فبراير، فاحتموا داخل القلعة، واستمرت قلعة العريش تقاوم مقاومة شديدة إلى أن سلَّمت يوم 20 فبراير. وبعد السيطرة على العريش انطلقت القوات الفرنسية صوب يافا. يقول عبد الرحمن الرافعي: "ثم تابع الفرنسيون زحفهم على سورية، فاحتلوا خان يونس، وهي أول بلدة في فلسطين، وساروا منها قاصدين غزة واستولوا عليها دون مقاومة تذكر، واستراح الجيش الفرنسي بها عدة أيام ثم استأنف سيره يوم 28 فبراير، فاحتل الرملة ثم اللّد".

واصل بونابرت وجيشه الزحف نحو يافا، التي كانت مدينةً عالية التحصين بأبراجٍ ضخمة وتدافع عنها حامية كبيرة، ويقودهم عبد الله بك، لذلك فرض نابليون حصارًا على المدينة، وبعد قتال ضار انفتحت أبواب المدينة، فدخل إليها الجنود الفرنسيون، ليندلع القتال داخل أسوار يافا لمدة يومين، تمكن على إثرها نابليون من السيطرة على يافا في 7 مارس. يصف عبد الرحمن الرافعي بشاعة ما قام به الجيش الفرنسي بعد دخول المدينة فقال: "قتل داخل أسوار يافا 2000 قتيل من الجنود العثمانية، ودخل الفرنسيون المدينة وأعملوا فيها السيف والنار. نهب الجنود

الفرنسيون يافا، وارتكبوا فيها من الفظائع ما تقشعر منه الأبدان باعتراف المؤرخين الفرنسيين، واستمر النهب والقتل يومين متواليين."

أصبحت جثث القتلى من الجنود العثمانيين وأهالي يافا تملأ الطرقات، وبدأ يدب فيها العفن، فظهر الطاعون بالمدينة، وبدأ الوباء يتفشى بعد دخول الفرنسيين، وأحدث فزعًا بين الجنود. يقول الرافعي: "وبذل نابليون قصارى جهده لمحاربة الوباء، فذهب جهده سدى وعجز عن مقاومة تلك الآفة الرهيبة التي ألقت الرعب في جيشه، واضطر ليرد إلى الجنود شجاعتهم أن يزور المرضى الذين أصيبوا بالوباء، ويخالطهم ويواسيهم، ويعرِّض نفسه لخطر العدوى، ليشدد عزائمهم ويقنع الجنود أن لا خوف عليهم من سريان العدوى."

بعد انتهاء المعركة وهزيمة القوات العثمانية، ألقى حوالي 3000 مقاتل من العثمانيين سلاحهم وسلموا أنفسهم للفرنسيين كأسرى حرب، بشروط اتفقوا عليها مع اثنين من قادة الجيش الفرنسي، ومن هذه الشروط أن تُضمن لهم أرواحهم بعد التسليم. وعندما شاهد نابليون جنوده يحرسون هذا العدد من الأسرى، زعق

قائلًا: ما كل هؤلاء الأسرى؟ ماذا يريدون منـي أن أفعـل بهـؤلاء الرجـال؟ هـل عنـدي مـن الـزاد مـا يكفيهم؟ ألديّ من السفن ما يكفي لـنقلهم إلـى مصر أو فرنسا؟ لكنه أدرك أن أمامه الآن كل هؤلاء الرجال، وعليه البت في أمرهم. عقد نابليون عددًا مـن المجـالس الحربيـة المتتاليـة، طـال الجـدل والأخذ والرد وانتهى الأمر بأن تقرر إعدامهم جميعًا رميًا بالرصاص، رغم أنهم عزل من السلاح. اخـذوا الجنود الأسرى إلى شاطئ بحر يافا وأطلقوا النـار علـيهم، حتـى قتلـوهم جميعًـا... أكثـر مـن 3000 أسير قتلوا بدم بارد في ذلك اليوم .

على أسوار عكا

نحـو عكـا تحـرك بونـابرت وجيشـه، وفـي الطريـق إليها احتل حيفا دون مقاومة. وفي يوم 19 مـارس وصـل إلـى أسـوار عكـا، فأخـذ يضـرب أسـوارها وأبراجها بالمدافع، ودارت معارك طاحنة، ارتد على إثرهـا الفرنسـيون بعـد تكبـدهم خسـائر فادحـة، وكانت هـذه أول هزيمـة منـي بهـا بونـابرت خـلال الحملة علـى الشـام، لكـن هيهـات أن يستسـلم للهزيمة، فالاستيلاء على عكا مفتاح تحقيـق كـل أحلامه لبناء إمبراطورية في الشرق. استمر حصار بونابرت لعكا أكثر من شهرين .

فـي 25 مـارس 1799، بـدأت القـوات الفرنسـية بحصار مدينـة عكـا وحاميتهـا البـالغ عـددها قرابـة 5000 جندي، والتي كانت تتلقى مختلف أشـكال الـدعم مـن السـفن الحربيـة التابعـة للأسـطول الملكـي البريطـاني، بقيـادة الأدميـرال وليـام سيدني سميث. ففي البداية أمر نـابليون قواتـه باسـتهداف أسـوار المدينـة بالمدفعيـة وشـن هجماتٍ عديـدةٍ لاقتحامهـا. اسـتطاعت تحصـينات عكا الصمود في وجهها، ونفذت القوات الفرنسـية خمـس هجمـات فـي الفتـرة مـن أول مـايو حتـى العاشر من الشهر نفسه دون التمكن من اختراق دفاعات عكا. لقد لعب الـدعم الـذي قدمـه السـير ولـيم سـميث لقـوات الجـزار باشـا دورًا لا يمكـن إنكاره في صمود عكا، ومن ثم هزيمة بونابرت عند أسوارها. فلم يتوقف دور الأسطول البريطاني في هذه المعركة عند دعم قوات احمـد باشـا الجـزار، ومد المدينة بـالمؤن والمعـدات والأسـلحة والعتـاد الـلازم لاسـتمرار صـمود القـوات المدافعـة عـن المدينة، بل تعداه إلى ابعد من ذلك بكثير .

السير وليم سميث في عكا

كان بونابرت أصدر تعليماته بان تُنقل المدافع التي سيسـتخدمها فـي حصـار عكـا بحـرًا علـى مـتن

السفن الفرنسية التي نجت من موقعة أبي قير البحرية إلى حيفا، أبحرت السفن من دمياط نحو حيفا، فما كادت أن تصل، حتى فاجأتها سفن الأسطول البريطاني، فأسرت منها سبع سفن بما عليها من مدافع وذخائر سلمتها إلى الجزار باشا، فحرمت بونابرت من أسلحة هو في أشد الحاجة إليها، ومنحت قوات الجزار، في الوقت نفسه، مددًا جديدًا أعانه على الصمود أمام هجمات الفرنسيين. يقول الرافعي إن بونابرت كتب في مذكراته: "إن فقد هذه السفن كانت له عواقب وخيمة."... "لقد حرمني هذا الرجل من حظي (يقصد السير وليم سميث)..... إن آمالي قد اتجهت إلي الشرق، واستهوتني فتوحاته العظيمة، وصرفتني عن التفكير في أوروبا، ولكن هذه الأحلام والآمال قد دفنت تحت أسوار عكا."

مع تفشي وباء الطاعون بين جنوده، ونقص المؤن والعتاد، يضاف إليها الفشل في إيقاف تدفق الدعم البريطاني لعكا، أدرك بونابرت أنها نهاية حلمه في إعلاء شأن فرنسا، ورفع علمها في سماء القسطنطينية. فأعطى أوامره، لمن تبقى من جنوده، بالانسحاب ليلاً إلى مدينة صور، ونقل المرضى والجرحى إليها لتلقي العلاج بها قبل

العودة إلى مصر، مرسلاً خطابًا إلى أعضاء الديوان يزف إلى أهل مصر أخبار انتصاراته!!! فكبرياؤه لم يسمح له بإعلان هزيمته وفشل الحملة على بلاد الشام... وسقوط أحلامه على أسوار عكا .

المصادر:

الشيخ عبد الله الشرقاوي، تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من الملوك والسلاطين، مكتبة مدبولي، من الدراسات التاريخية، 1996.

عبد الرحمن الجبرتي، عجايب الآثار في التراجم والأخبار، الجزء الرابع، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.

عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، الجزء الاول، مكتبة المعارف المصرية.

محمد جلال كشك، ودخلت الخيل الازهر، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الثالثة، 1990.

احمد حافظ عوض، نابليون بونابرت في مصر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.

حواديت الصهاينة..

الدكتور مشرفة

وحزن أينشتاين على وفاته

"لقد خلت طفولتي من كل بهيج. كنت لا ألهو مثل الأطفال لكي أكون في المقدمة، ولقد تعلمت في تلك السن أن اللعب مضيعة للوقت، كما كانت تقول والدتي، تعلمت الوقار والسكون في سن اللهو والمرح، حتى الجري كنت أعتبره خروجًا عن الوقار".

بهذه الكلمات يصف العلامة د. علي مصطفى مشرفة باشا، كيف كانت طفولته، وهو عالم الفيزياء النظرية المصري، الذي يُلقّب بأينشتاين العرب لأن أبحاثه كانت في نفس المجال ونفس الموضوعات التي كانت أبحاث ألبرت أينشتاين تدور حولها.

نبوغ مبكر

في 11 يوليو 1898، وُلد علي مصطفي مشرفة بمدينة دمياط، وكان والده من أعيان ووجهاء تلك المدينة، في عام 1907 حصل على الشهادة الابتدائية، وكان ترتيبه الأول على القطر، وكان

دائمًا من الأوائل في الدراسة، فأمضى سنوات الدراسة بالمجان لتفوقه.

يقول شقيقه الدكتور عطية مصطفى مشرفة في كتابه (دكتور علي مصطفى مشرفة: ثروة خسرها العالم): "في عام 1914، حصل على شهادة البكالوريا وكان ترتيبه الثاني على القطر المصري كله وله من العمر ستة عشر عاما، وهو حدث فريد في عالم التربية والتعليم في مصر يومئذ، وأهّله هذا التفوق، لاسيما في المواد العلمية، للالتحاق بأي مدرسة عليا يختارها مثل الطب أو الهندسة، لكنه فضَّل الانتساب إلى دار المعلمين العليا، حيث تخرج منها بعد ثلاث سنوات بالمرتبة الأولى، فاختارته وزارة المعارف العمومية لبعثة علمية إلى بريطانيا على نفقتها".

في خريف 1917 التحق بجامعة نوتنجهام الإنجليزية، والتي حصل منها على شهادة البكالوريوس في الرياضيات خلال ثلاث سنوات بدلا من أربع. وقد لفت تفوقه نظر أساتذته بالجامعة، الذين اقترحوا على وزارة المعارف المصرية أن يواصل علي مصطفى مشرفة دراسته للعلوم في جامعة لندن، فاستجابت الوزارة لطلبهم، والتحق عام 1920 بالكلية

الملكية، وحصل منها عام 1923 على الدكتوراه في فلسفة العلوم. ثم بعد سنة واحدة، حصل عام 1924 على دكتوراه العلوم من جامعة لندن، وكان أول مصري يحصل عليها، وهي أعلى درجة علمية في العالم، لم يتمكّن من الحصول عليها سوى 11 عالمًا على مستوى العالم في ذلك الوقت.

في عام 1925، عمل الدكتور علي مصطفى مشرفة بدرجة أستاذ مشارك (مساعد) في الرياضيات التطبيقية في كلية العلوم، فقد كان عمره حينذاك 27 سنة، بينما كانت لوائح الجامعة وقوانينها لا تسمح بتعيين أساتذة دون سن الثلاثين، وهو الحد الأدنى للسن المطلوب لتحقيق درجة أستاذ. لكنه في العام التالي، ونتيجة تفوقه الملحوظ، اضطرت الجامعة لتخطي اللائحة وقانون الجامعة، فمُنح درجة "أستاذ" عام 1926، وهو في عمر 28 عاما. وفي عام 1936، أصبح أول عميد مصري لكلية العلوم، ثم انتُخب للعمادة أربع مرات متتاليات، كما انتُخب في ديسمبر 1945 وكيلاً للجامعة. وقد تتلمذ على يديه مجموعة من أشهر علماء مصر، وفي

مقدمتهم عالمة الذرة المصرية الدكتورة سميرة موسى.

رؤيته الاجتماعية وموقفه السياسي

أثناء اشتعال ثورة 1919، كتب الدكتور علي مصطفى مشرفة إلى صديقه محمود فهمي النقراشي (أحد زعماء الثورة) يخبره فيها برغبته الرجوع إلى مصر للمشاركة في الثورة، وكان جواب النقراشي له: "نحن نحتاج إليك عالمًا أكثر مما نحتاج إليك ثائرا، أكمل دراستك ويمكنك أن تخدم مصر في جامعات إنجلترا أكثر مما تخدمها في شوارع مصر".

في عام 2005، بمناسبة الاحتفال العالمي بمرور 100 عام على الأعمال الريادية للعالم الشهير ألبرت آينشتاين، كتب الدكتور عطية عبد السلام عاشور أحد تلاميذ الدكتور مشرفة: "بالإضافة إلى أبحاث هذا العالِم الجليل (د. مشرفة) وكتبه ومقالاته المبسطة التي نشرت باللغة العربية، فإنه كان يقوم بالتدريس لطلبة قسم الرياضيات بعلوم القاهرة (جامعة فؤاد الأول وقتها) أعمال ألبرت آينشتاين ضمن ما يدرس لهم من مقررات، وقد كان كاتب هذه السطور ضمن من درسوا

علي يد هذا الأستاذ العظيم، الذي نجح في أن يثير انتباه طلبته إلى أهمية الأعمال العلمية التي تمت في بداية القرن العشرين على يد آينشتاين وغيره من العلماء".

ويذكر مشروع ذاكرة مصر المعاصرة، حول الدكتور مشرفة: "وإلى جانب إسهاماته العلمية، كان حافظًا للشعر، ملما بقواعد اللغة العربية، عضوًا بالمجمع المصري للثقافة العلمية باللغة العربية، حيث ترجم مباحث كثيرة إلى اللغة العربية. كما نُشر له ما يقرب من ثلاثين مقالاً منها: سياحة في فضاء العالمين ـ العلم والصوفية ـ اللغة العربية كأداة علمية ـ اصطدام حضارتين ـ مقام الإنسان في الكون..

إضافة إلى ذلك شارك في مشاريع مصرية عديدة تشجيعاً للصناعات الوطنية.. كما شارك في إنشاء جماعة الطفولة المشردة. وألف الجمعية المصرية لهواة الموسيقى في سنة 1945، وكوّن لجنة لترجمة "الأوبريتات الأجنبية" إلى اللغة العربية.. وكتب كتاباً في الموسيقى المصرية".

علاقته بألبرت آينشتاين

يقول الدكتور عطية عبد السلام عاشور، تلميذ الدكتور مشرفة: "بدأ المجتمع العلمي في مصر الاهتمام بأعمال ألبرت آينشتاين، مبكرًا منذ عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي، عندما بدأ الدكتور علي مصطفي مشرفة في معالجة بعض مشاكل تركيب المادة والإشعاع في إطار نظرية النسبية الخاصة، وقد قام بنشر العديد من الأبحاث في هذا الاتجاه في الدوريات العلمية المتخصصة في النصف الأول من القرن الماضي. وله مجموعة من الكتب المبسطة باللغة العربية منها كتاب عن نظرية النسبية الخاصة. والغريب أنه نبه في هذا الكتاب إلى احتمال وجود أكثر من أربعة أبعاد في الكون (أضاف الزمن كبعد رابع)، الشيء الذي انتبه إليه العلماء في الربع الأخير من القرن الماضي ومازال يحظى باهتمامهم حتى اليوم."

وكان الدكتور مشرفة أحد العلماء القلائل الذين وصلوا إلى سر تفتيت الذرة، لكنه حارب استخدام الطاقة النووية في صنع الأسلحة، أو استخدامها في الحروب. وتقول عدد من المصادر إن آينشتاين دعاه عام 1945 للاشتراك في إلقاء أبحاث تتعلق

بالذرة، كأستاذ زائر لمدة عام، لكن د. مشرفة اعتذر بقوله: "في بلدي جيل يحتاج إلي."

حول أسباب وفاته المفاجئة

كان الدكتور مشرفة أول عالِم في العالَم كله يضع نظرية الطاقة الهيدروجينية، وحينئذ لم يكن هناك علماء آخرين قد توصلوا إلى هذه الفكرة من الأساس. وسبّب هذا قلقًا كبيرًا جدًا في الهيئات العسكرية والأوساط الاستخباراتية في كل من أمريكا والاتحاد السوفيتي السابق بالإضافة إلى إسرائيل، وأصبح وجود الدكتور مشرفة خارج سيطرتهم يمثل خطرًا بالغًا عليهم جميعا، لأسباب مختلفة.

لذلك، فعكس ما ذكره شقيقه الدكتور عطية مصطفى مشرفة في كتابه، بأن "الدكتور علي مصطفى مشرفة لم يمت مسمومًا، بل مات على فراشه، بعد توعك بسيط"، ظهرت عدد من النظريات بين الباحثين والمؤرخين، مفادها أن هناك العديد من الأسباب ما يجعلهم يرجحون فكرة اغتياله عن طريق السم.

وهنا نجد لزامًا علينا أن نؤكد أننا لا نشكك في مصداقية الدكتور عطية مشرفة، شقيق العالم

الجليل، أو مصداقية أسرته، التي استبعدت أيضًا فكرة اغتياله، لأن أجهزة الاستخبارات الكبيرة لديها ما يسمى "السم البريء" الذي لا يمكن تتبع آثاره داخل جسم المتوفي، سواء بالتشريح أو بالتحاليل المعملية.

ومن المعروف أن إسرائيل، والتي كانت حديثة التكوين آنذاك، كانت تسعى لامتلاك قنبلة نووية، فقد كان ديفيد بن جوريون، رئيس وزراء إسرائيل قلقاً من أن دولته وليدة ومحاطة بالدول العربية، وهذا ما جعله يبادر باتصالاته السرية مع الأمريكيين والفرنسيين ليأخذ الدعم المالي والتكنولوجي اللازم لبدء برنامج إسرائيل النووي.

ومن غير المعقول والحال هكذا أن تترك إسرائيل عالما مصريا خارج سيطرتها، خصوصًا بعد ما توصل إليه من نظرية الطاقة الهيدروجينية.

أما بالنسبة للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي فقد كانت الحرب الباردة، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، مستعرة بينهما، خصوصًا بعد أن فجرت الولايات المتحدة في عام 1945، قنبلتي هيروشيما وناجازاكي النوويتين، وظهور السلاح النووي لأول مرة، مما جعل سباق التسلح بين

القـوتين العظمتـين أكثـر شراسـة، وبـدأ الاتحـاد السوفيتي في بذل كامل طاقته للحاق بالسـباق النووي، فنجح في إنتاج وتجريب أول قنبلـة نوويـة له بعد أربع سنوات فقط في عام 1949.

فمـن ناحيـة، أصـبح الأمريكيـون قلقـين جـدًا مـن إمكانيـة اختطـاف الـدكتور مشـرفة مـن قبـل السوفييت، وإجباره علـى العمـل لصالحهم، كمـا فعلوا مع علماء ألمـان بعـد دخـولهم بـرلين؛ ومـن ناحية أخرى فإن السوفييت كانوا قـد توصـلوا إلـى معادلة قوة الأمريكان النووية وامتلكوا سر القنبلـة الذرية بعد جهد جهيد، فشـعر السـوفييت بإحبـاط شـديد جـدًا مـن أن هنـاك سـلاحاً أكثـر قـوة مـن الأسـلحة الموجـودة ويمكـن أن يسـبقهم إليـه الأمريكيـون إذا حصـلوا علـى خـدمات هـذا العـالم المصري.

وعلى أية حال فقد نجح الأمريكان في تصـنيع أول قنبلـة هيدروجينيـة وتجربتهـا فـي نـوفمبر 1952، وكانت النتائج تشير إلى أن خوف كلا القوتين مـن توصل أي منهما لصنعها قبل الأخرى لـه وجاهتـه، فقد أنتَجَـت أول قنبلـة هيدروجينيـة قـوة تدميريـة تعادل قوة 714 قنبلة من قنابل هيروشيما.

في 15 يناير 1950، تناقلت جميع وكالات الأنباء على مستوى العالم خبر وفاة الدكتور مشرفة، حيث كان يتمتع بشهرة عالمية كبيرة كعالم ذرة مصري، وتكريمًا له أنشأت حكومة المملكة المتحدة منحة تعليمية لدراسة الدكتوراه تحت اسم "منحة نيوتن-مشرفة للدكتوراه" في المملكة المتحدة.

وقد رثاه ألبرت أينشتين بكلمات حزينة قال فيها: "لا تقولوا إن مشرفة مات، لا لا إننا محتاجون إليه، إنها خسارة كبيرة لقد كان رائعًا وكنت أتابع أبحاثه في الذرة بكل ثقة، لأنه كان من أعظم علماء الطبيعة.." وتمت الصلاة عليه في مسجد عمر مكرم يوم 16 يناير 1950، وكانت جنازة فريدة من نوعها حيث ارتدى أساتذة وطلاب الجامعة الروب الأسود وساروا خلف النعش في صفوف.. فكانت أول وآخر جنازة علمية في مصر!

المصادر:

د. عطية مصطفى مشرفة، دكتور علي مصطفى مشرفة: ثروة خسرها العالم، مركز الشرق الأوسط.

منتدى الموقع التعليمي للفيزياء، نسخة محفوظة، 29 أغسطس 2011، على موقع واي باك مشين

اغتيال سميرة موسى

في الخامس من أغسطس عام (1952) قتلت في ظروف غامضة بالولايات المتحدة الأمريكية الدكتورة سميرة موسى عالمة الذرة المصرية، وأول سيدة تنضم لهيئة التدريس بكلية العلوم، جامعة فؤاد الأول سابقا، (جامعة القاهرة) حاليا.

أصابع الاتهام وُجهت إلى الموساد على استحياء، فلم تكن هناك أية أدلة قاطعة تشير الى ذلك. رغم انه كانت هناك قرائن مهمة تشير الى أن المستفيد الوحيد من مقتلها هو الكيان الصهيوني الذي كان يسعى منذ نشأته عام 1948 بكل جهد، متاح وغير متاح، إلى منع العرب عموما، ومصر تحديدا، من امتلاك وسائل القوة اذ كانت العالمة د. سميرة موسى من ناحية في طريقها "لاكتشاف طريقة تصنيع قنبلة ذرية رخيصة التكلفة"، وهو ما لم يكن الكيان الصهيوني يقبل به، ومن ناحية اخرى فإن الطريقة التي قتلت بها د. سميرة موسى تشير إلى أنها كانت جريمة قتل مدبرة وليست حادثًا عرضيًا.

حتى منتصف عام 2012 كانت الصحف تتناول قصة سميرة موسى على أن حادث مقتلها قيد

ضد مجهول، إلى أن ظهرت من أعلنت على الملأ أن الموساد هو من دبر اغتيال العالمة المصرية.

البداية

كانت سميرة موسى الأولى على الشهادة التوجيهية عام 1935، ولم يكن حصول الفتيات على هذا المركز مألوفًا في ذلك الوقت، إذ لم يكن يسمح لهن بدخول امتحانات التوجيهية إلا من المنازل، حتى تغير هذا القرار عام 1925 بإنشاء مدرسة الأميرة فايزة، وهي أول مدرسة ثانوية للبنات في مصر. وتقول الروايات، إنه "كان لتفوقها المستمر أثر كبير على مدرستها، حيث كانت الحكومة تقدم معونة مالية للمدرسة التي يخرج منها الأول، مما دفع ناظرة المدرسة نبوية موسى إلى شراء معمل خاص، حينما سمعت يومًا أن سميرة تنوي الانتقال إلى مدرسة حكومية يتوفر فيها معمل. ويُذكر عن نبوغها أنها قامت بإعادة صياغة كتاب الجبر في السنة الأولى الثانوية، وطبعته على نفقة أبيها الخاصة، ووزعته بالمجان على زميلاتها عام 1933".

اختارت الطالبة سميرة موسى أن تلتحق بكلية العلوم، حينما كانت أمنية أي فتاة في ذلك الوقت

الالتحـــاق بـــكلية الآداب. لفتـــت نظـــر أســـتاذها الدكتور علي مصطفى مشـرفة، وهـو أول مصـري يتـولى عمـادة كليـة العلـوم، وقـد تـأثرت بـه تـأثرًا مباشـرا، ليس فقط من الناحية العلميـة، بـل أيضًـا بالجوانب الاجتماعيـة فـي شخصـيته. ولمـا كانـت سـميرة موسـى الأولى على دفعتهـا ببكـالوريوس العلـوم، عُينـت معيـدة بالكليـة، ورغـم احتجاجـات الأسـاتذة الأجانب (الإنجليز)، فقد أصـر د. مشـرفة على تعيينها، ودافع عن ذلك بشـدة،

وهنا تجدر الإشـارة الى أن العـالم المصـري علـي مصـطفى مشـرفة هـو أحـد عظمـاء علمـاء مصـر، ويمثل في وقته واحدًا من 7 علماء على مستوى العالم، في معرفـة أسـرار الـذرة وكيفيـة تفتيتهـا، وأول مـــن توصـــل إلـــى فكـــرة تصـــنيع قنبلـــة هيدروجينية، وتمنى ألا يتم تصنيعها، وكتكريم لـه أنشـأت حكومة المملكـة المتحـدة منحـة تعليميـة لدراســة الـدكتوراه تحـت اسـم منحـة "نيـوتن – مشـرفة" للدكتوراه في المملكة المتحـدة. وتقـول بعض الروايات عن مشرفة أنـه: "تـم اغتيالـه عـام 1950، وان هذه العمليـة ربمـا كانـت بدايـة أشـهر عمليـات الاغتيـال لجهـاز الموسـاد، ويعـود سـبب

اغتياله إلى إصراره على تطبيق أبحاثه في علم الذرة في وطنه الأم مصر".

الذَرّة من أجل السلام

بعد تخرجها في كلية العلوم جامعة فؤاد الأول، حصلت سميرة موسى على شهادة الماجستير في موضوع التواصل الحراري للغازات، ثم سافرت في بعثة إلى بريطانيا درست فيها الإشعاع النووي، وحصلت على الدكتوراه في الأشعة السينية وتأثيرها على المواد المختلفة. وأصبحت تلقب ميس كوري الشرق (نسبة الى ماري كوري، عالمة الفيزياء والكيمياء، وأول امرأة تحصل على جائزة نوبل)، وقد شهد بنبوغها المشرف الإنجليزي على بعثتها فأرسل إلي جامعة فؤاد الأول خطابًا يؤكد فيه أن تجارب سميرة موسي قد تغير وجه الإنسانية لو أنها وجدت المعونة الكافية.

أنجزت سميرة موسى رسالة الدكتوراة في سنة وخمسة أشهر وقضت المتبقي من السنة الثانية في أبحاث متصلة، وصلت من خلالها إلى معادلة هامة يمكن بواسطتها تفتيت المعادن الرخيصة مثل النحاس ومن ثم صناعة القنبلة الذرية من

مواد قد تكون في متناول الجميع، ولكن نتائج أبحاثها تلك لم تلق قبولاً في أوروبا آنذاك، وأيضًا لم تدون الكتب العلمية العربية الأبحاث التي توصلت إليها .

تقول ليلى جبرائيل في بحثها عن سميرة موسى: "كانت تؤمن بأن امتلاك الدولة لسلاح نووي هو واحد من طرق وعوامل تحقيق السلام، فحين تتحدث الدول عن السلام، لابد أن يكون ذلك من موضع قوة لا موضع ضعف. فقد عاصرت سميرة موسى بعض الحروب ومصائبها، ونتائج القنابل الذرية التي ألقيت على هيروشيما وناجازاكي سنة 1945، وقد لاحظت الاهتمام المبكر لإسرائيل في مجال التسليح، وسعيها لأن تتفرد بالسلاح النووي في المنطقة".

بعد ثلاثة أشهر فقط من إعلان الدولة الإسرائيلية سنة 1948، قامت سميرة موسى بتأسيس هيئة الطاقة الذرية في مصر، وكانت تدعو دائماً لأهمية امتلاك سلاح نووي ومجاراة هذا التقدم العلمي الكبير، كما حرصت على إيفاد البعثات للتخصص في الذرة وعلومها".

أما عن اهتماماتها الذرية في المجال الطبي فتقول ليلى جبرائيل: "كانت سميرة موسى تأمل في استخدام الذرة في المجال الطبي وتسخيرها لخدمة الإنسان حيث كانت تقول: (أمنيتي أن يكون علاج السرطان بالذَرة مثل الأسبرين). وقد كانت عضواً في لجنة الطاقة والوقاية من القنبلة الذرية التي شكلتها وزارة الصحة المصرية، كما كانت عضواً في العديد من اللجان العلمية المتخصصة".

إلى أمريكا بلا عودة

استجابت الدكتورة سميرة موسى إلى دعوة للسفر إلى الولايات المتحدة الأمريكية في عام 1951، حيث أتيحت لها الفرصة لإجراء أبحاث بمعامل جامعة سان لويس في ولاية ميسوري الأمريكية، وقد تلقت العديد من العروض للبقاء. لكنها رفضت العمل خارج موطنها، ورفضت توظيف معارفها ومكتشفاتها العلمية بالخارج بقولها: "ينتظرني وطنٌ غالٍ يسمى مصر".. يقول عبد الله بلال في كتابه عن سميرة موسى: "لقد حاولت كل من بريطانيا وأمريكا احتواءها بتوجيه الزيارات لها وتقديم المغريات المادية حتى لا تعود إلي الوطن، كما أنها اعتذرت عن عدم قبول الجنسية

الأمريكية.".. كما أن الحياة الأمريكية لم ترق لها، وهذا ما يتضح من خطاب أرسلته لأبيها تقول فيه: "ليست هناك في أمريكا عادات وتقاليد كتلك التي نعرفها في مصر، يمارسون كل شيء ارتجاليًا.. فالأمريكان خليط من مختلف الشعوب، كثيرون منهم جاءوا إلى هنا لا يحملون شيئًا على الإطلاق، فكانت تصرفاتهم في الغالب كتصرف زائر غريب يسافر إلى بلد يعتقد أنه ليس هناك من سوف ينتقده لأنه غريب."

قبل عودتها إلى مصر بأيام، كتبت آخر رسائلها الى والدها تقول فيها: "لو كان في مصر معمل مثل المعامل الموجودة هنا كنت أستطيع أن أعمل حاجات كثيرة"، وعلق محمد حسن الزيات مستشار مصر الثقافي في واشنطن (وزير خارجية مصر فيما بعد) وقتها أن كلمة "حاجات كثيرة" كانت تعني بها أن في قدرتها اختراع جهاز لتفتيت المعادن الرخيصة إلى ذرات عن طريق التوصيل الحراري للغازات ومن ثم تصنيع قنبلة ذرية رخيصة التكاليف.

وفي رسائل سابقة لوالدها كتبت: "لقد استطعت أن أزور المعامل الذرية في أمريكا، وعندما أعود إلى مصر سأقدم لبلادي خدمات جليلة في هذا

الميـدان، وسأسـتطيع أن أخـدم قضـية السـلام.” وتقول الروايات إنها كانت تنوي إنشاء معمل خاص بها، فقد اشترى والدها فدانًا في منطقة الهرم بمحافظة الجيزة لهذ الغرض.

ضد مجهول

قبيـل عودتهـا إلـى أرض الـوطن بأيـام تـم اغتيـال سميرة موسى، فـي أحـد أيـام النصـف الأول مـن شهر أغسطس (هنـاك اخـتلاف بـيّن فـي تحديـد يـوم مصـرعها فـي المصـادر المختلفـة، فـبعض المصـادر تحـدد يـوم 5 أغسـطس، والـبعض الآخـر يحدد يوم 15 أغسطس)، وهي في طريقها لتلبية دعوة لزيارة معامل نووية في ضواحي كاليفورنيا.

تقـول ليلـى جبرائيـل: “فـي طريـق كاليفورنيـا المرتفع الخطر، ظهرت سيارة نقل فجـأة لتصـطدم بسيارة سميرة موسى، وقد قفز السائق الهندي من السـيارة ليختفـي إلـى الأبـد، وتـرك السـيارة تنحدر بسرعة جنونية لأسفل، لتهوي فـي عمـق منحـدر جبلـي لتمـوت سـميرة موسـى وتكتـب نهايتها.”

وكان واضـحًا أن السـائق المـدرب كـان يعـرف بمـا سـيحدث، فقـد قفـز مـن السـيارة فـي الوقـت

المناسب، وأوضحت التحريات أنه كان يحمل اسما مستعارا، واتضح أن إدارة المفاعل لم تبعث بأحد لاصطحابها أصلا. وكما اختفى سائق سيارتها، فقد اختفت سيارة النقل التي صدمتها، وسائقها، ولم يستدل على أي منهم... وهكذا قيدت القضية ضد مجهول.

مذكرات راقية ابراهيم تكشف دور الموساد

ولكن في 30 مارس 2012، تطالعنا جريدة دنيا الوطن بالخبر التالي:

حفيدة الفنانة راقية إبراهيم: جدتي اليهودية ساهمت مع إسرائيل في قتل عالمة الذرة المصرية سميرة موسى..

وتتوالى المعلومات...

بعد 60 عامًا من مقتل الدكتورة سميرة موسى، اعترفت ريتا ديفيد توماس، حفيدة راشيل إبراهام ليفي، التي عُرفت في مصر باسم الفنانة راقية إبراهيم، بأن جدتها تعاونت مع الموساد لاغتيال عالمة الذرة المصرية سميرة موسي، مؤكدة أن جدتها كانت مؤمنة بإسرائيل، وأنها سهلت على الموساد أمر دخول شقة العالمة المصرية، بعدما

سـرقت مفـاتيح شـقتها ومنحتهـا للموسـاد للتجسس علـى أسـرار أبحـاث سـميرة موسـى. وذكـرت ريتـا، أن العلاقـة بـين الـدكتورة سـميرة موسـى وراقيـة انتهـت عـام 1952، عنـدما قامـت سميرة بطردها مـن منزلهـا بعـدما تـدخلت راقيـة كوسـيط بينهـا وبـين الولايـات المتحـدة لإعطائهـا الجنسـية الأمريكيـة وأخـذت تضـغط عليهـا لقبـول الجنسية، وعندما رفضت سميرة العرض، هـددتها راقية إبراهيم بأن العواقـب لـن تكـون طيبـة، وهنـا طردتها سميرة وانتهت العلاقة بينهما. وقـد أكـدت حفيدتها أن كـل هـذه التفاصـيل وجـدتها واطلعـت عليها في مذكرات جدتها راشـيل إبراهـام ليفـي، أو.... الفنانة راقية إبراهيم.

المصادر:

ليلى جبرائيل، موقع "معلومـات ثقافيـة" علـى الإنترنـت، بحـث عن سميرة موسى جاهز للطباعة.

عبد الله بلال، اغتيال العقل العربي: سيرة ذاتية لأولـى شـهداء العلم، د. سميرة موسي

بوابة الأهرام على شبكة الإنترنت، أعداد متفرقة

موهوبون، موقع للمخترعين العرب، أعداد متفرقة.

قرش "شيدمي"

ومذبحة كفر قاسم

حكمت المحكمة على العقيد "يسفار شيدمي"، الضابط بجيش الدفاع الاسرائيلي، بالتوبيخ.. مع دفع غرامة مالية قدرها قرش إسرائيلي واحد.. والقرش الإسرائيلي يساوي مليمًا مصريًا واحدًا في ذلك الحين.. وذلك الحين كان عام 1959. أما أحداث الجريمة التي تم الحكم فيها، فقد جرت وقائعها في يوم التاسع والعشرين من أكتوبر عام 1956، نفس اليوم الذي بدأ فيه العدوان الثلاثي البريطاني الفرنسي الإسرائيلي، على مصر. والتهمة التي استحق عليها العقيد "يسفار شيدمي" ذلك الحكم، لم تكن سوى تلك الجريمة التي أصبحت تعرف فيما بعد "بمذبحة كفر قاسم".

سقط في هذه المذبحة ثمانية وأربعون شهيدا من الفلسطينيين العزل.. بينهم سبعة من الأطفال، أصغرهم كان عمره ثماني سنوات.. وتسع من النساء الشابات والمسنات، كانت أكبرهن تبلغ من العمر ستة وستين عاما.

أدى الضغط الإعلامي والجماهيري والمطالبات بمعاقبة المسئولين الحقيقيين عن المجزرة إلى تقديم "شيدمي" لمحاكمة عسكرية، وعقدت هذه المحاكمة في 24 ديسمبر 1958، أي بعد مرور سنتين على المجزرة، وأنهت عملها بعد شهرين، وكانت عقوبته، كما ذكرنا آنفا، التوبيخ ودفع غرامة مقدارها قرش إسرائيلي واحد بسبب زيادة عدد ساعات منع التجوال خارج نطاق صلاحيته، عقوبة أصبحت تعرف بـ "قرش شيدمي"، للدلالة على المحاكمة الصورية.

وفيما بعد ترقى "شيدمي" إلى أن أصبح مساعدا لقائد منطقة الشمال العسكرية، وحصل على رتبة جنرال في جيش الاحتياط الإسرائيلي، وبعد أن ترك الجيش أصبح أحد النشطاء السياسيين في "حزب العمل الإسرائيلي"، لكنه ترك الحزب فيما بعد وشارك في تأسيس "حزب داش" عام 1977، وتوفي "شيدمي" عن عمر يناهز 96 عاما، ودفن في كيبوتز "سدوت يام"، حيث كان أحد مؤسسي هذا الكيبوتز.

وبعد وفاته، كشفت صحيفة "هآرتس" عن شهادته التي تركزت على الادعاء بأن المحاكمة التي عقدت بعد انتهاء المجزرة كانت "محاكمة

صـورية"، وتهـدف إلـى تبرئـة مؤسسـة الجـيش ورئـيس الـوزراء آنـذاك "ديفيـد بـن جوريـون" مـن المسئولية، وكذلك رئيس الأركان "موشيه ديـان"، ورئـيس القيـادة المركزيـة ورئـيس هيئـة الأركـان لاحقًا "تسفي تسور".

وجاء في شهادة "شيدمي"، الذي كان قائـد أحـد الألوية المسـئولة عـن الحـدود مـع الأردن، والتـي شملت المنطقة من بير السكة حتى كفر قاسم: "فـي يـوم التاسـع والعشـرين مـن اكتـوبر 1956، أبلغني قائد المنطقة الوسـطى الجنـرال "تسـفي تسور"، إن سياسة الأركان العامـة تجـاه السـكان العـرب فـي المنطقـة تهـدف إلـى الحفـاظ علـى الهـدوء فـي منطقـة الحـدود مـع الأردن، إذ أن الهجوم سـيتركز فـي الجبهـة الجنوبيـة ضـد مصـر (العدوان الثلاثي على مصر)".

جاء في شهادة الرائد "شيمونيل ملينكـي"، قائـد وحـدة حـرس الحـدود بالمنطقـة المـذكورة: "فـي الساعة الواحدة من بعد الظهر استدعاني العقيـد "يسـفار شـيدمي"، وأبلغنـي بالمهمـات الموكلـة إلـي وحـدتي، والتعليمـات المتعلقـة بطريقـة تنفيذها.. أخبرني ان تنفيذ حظـر التجـوال سـيتم، منذ اليوم وحتى إشـعار آخـر، بدايـة مـن السـاعة

الخامسة بعد الظهر.. ولما أخبرته بان الأوامر اليومية المعتادة تقضي بفرض حظر التجوال من الساعة العاشرة ليلا وحتى السادسة صباحا، أجابني بأن الأوامر تغيرت، وشدد على أن أنفذ هذه الأوامر الجديدة بصورة حازمة لا تهاون فيها، وأضاف بشكل واضح لا لبس فيه قائلا: "لا تنس ما ذكرته لك منذ قليل.. لا نريد معتقلين، فليس لدينا الوقت الكافي لنبدده على حراستهم، ولا الطعام الكافي لسد رمقهم.... وعندما ذكرته بأن العمال الذين يعملون بالحقول خارج نطاق قراهم يعودون بعد الغروب، فماذا نحن فاعلون معهم.. صرخ في وجهي: "ملينكي!! لا أريد عواطف.. الله يرحمهم".

في حين أكد الرائد "أبراهام تامير"، ضابط العمليات بالقيادة الوسطى في شهادته أمام المحكمة عن تلك المجزرة ، أن "المخطط وضع بتوجيه من رئيس الاركان "موشيه ديان" وقد اشتركت في وضع المخطط التفصيلي.. وهنا نتوقف لنتساءل: عن أي مخطط يتحدث "تامير"؟؟

هل باع الفلسطينيون أرضهم للصهاينة

تجلي شهادة "يهودا فرينكينتل"، قائد السرية الثانية في كتيبة "ملينكي"، أمام المحكمة الغموض بصورة كاملة.. يقول "يهودا" في شهادته: كان يوجد مخطط مسبق يحمل اسم "مخطط خلد"، وقد صدرت لنا الأوامر قبل خمسة أيام من بدء عملية كفر قاسم، وطلب منا تنفيذ المخطط بشكل مفصل.. وكانت الأوامر على مستوى الكتيبة والسرية وضباط الوحدات الأساسية"..

فالمذبحة كانت جزءاً من مخطط أعم وأشمل من مجرد أوامر صدرت عن ذلك الضابط أو ذاك القائد.. فمخطط الخلد، والذي عرف أيضًا باسم العملية "س59"، وُضع بمعرفة رئاسة الأركان ووزارة الدفاع.. الجنرال "موشى ديان"، رئيس الأركان.. و"ديفيد بن جوريون"، رئيس الحكومة ووزير الدفاع وقتئذ .

ثم يستكمل "يسفار شيدمي" شهادته: لقد أصدرت أوامري حسب "مخطط خلد"، فالمخطط كان يمثل الإطار العام لتصرف حرس الحدود في المنطقة تحت قيادتي.

وفـي محاولـة لتبرئـة سـاحة "شـيدمي"، قـال "موشـى ديان" رئـيس الأركـان العامـة وقتهـا فـي شـهادته أمـام لجنـة التحقيـق: أجـل كـان هنـاك مخطط بهذا الاسم.. ومن هنـا أرى تصـرف العقيـد "شيدمي" لا غبار عليه بالتأكيد. ثم تأتي شـهادة العقيـد "حـاييم هرتسـوج"، الـذي أصـبح رئـيس الدولة لاحقا: إن فرض منـع التجـوال كـان صـحيحا على ضوء "مخطط س 59"، وان أوامر "شـيدمي" في هذا الصدد كانت معقولة.

يبـدو الآن جليـا، أن الهـدف الكـامن وراء هـذه المذبحة، وكـل المـذابح التـي سـبقتها بدايـة مـن عام 1937، مرورًا بعام النكبة (1948)، الذي شـهد أكبـر عـدد مـن تلـك المجـازر، وصـولا إلـى يومنـا الحـالي، لـم يكـن سـوى تفريـغ المـدن والقـرى الفلسطينية من أهلها لتوطين الصهاينة القـادمين من الخارج.

أكاذيب صهيون

تقـوم الدعايـة الصـهيونية علـى أن الفلسـطينيين هم من باعوا أراضيهم، لكن الحقيقة الموثقة تؤكد أن الفلسطينيين هُجّروا بسبب المـذابح والمجـازر التي ارتكبتها العصابات الصهيونية.. ويؤكـد العديـد

مـن المـؤرخين العسـكريين أن عمليـات التهجيـر القسـري للفلسـطينيين تمـت بشـكل مبـرمج ومخطـط بهـدف "تطهيـر فلسـطين مـن سـكانها العرب" فهل هناك فجور وظلم وخلط للحقائق أكثر من ذلك؟

ففي عام 1947، كان يسكن في المناطق التابعة للدولة اليهودية ـ حسب قـرار التقسـيم ـ مـا يزيـد عن 243 ألف عربي، يقيمون في 219 قرية، وأربع مدن هي حيفا، وطبريا، وصفد، وبيسـان.. وخـلال أقل من ثمانية أشهر، تم تهجير ما يزيـد عـن 239 ألف عربي..

أي أن 98% من السكان الأصليين تم تهجيـرهم.. كما أخليت ودمرت 180 قرية عربية تماما، بنسـبة تزيد عن 82% من القـرى الأصـلية.. عـلاوة علـى التهجير الكامـل لسـكان ثـلاث مـن المـدن الأربـع، هي صفد وطبريا وبيسـان، ينمـا بقـي فـي حيفـا 1950 فلسطينيا فقط...

وبالمقابـل قامـت العصـابات العسـكرية الصـهيونية بتهجير ما يقرب من 122 ألف عربي من المنـاطق التابعة للدولة الفلسطينية، بعد قرار التقسيم عام 1947، وأخلت ودمرت 70 قرية بالكامل، وتم تهجير

سكان يافا وعكا بشكل كلي تقريبا، كما تم تهجير جزء كبير جدًا من سكان مدينتي اللد والرملة .

لقد طرد الصهاينة بقوة السلاح أهالي 530 مدينة وقرية سنة 1948 وحدها.. واستولوا على أراضيهم التي تمثل مساحتها ما يعادل 92% من مساحة إسرائيل.

وكشفت الملفات الإسرائيلية التي فتحت أخيرا أن 89% من القرى هُجّرت بسبب أعمال عسكرية.. و10% بسبب الحرب النفسية، حسب نظرية التخويف وإثارة الرعب.. وأن 1% فقط نزحوا عن أراضيهم بسبب بيعها للصهاينة طوعا.

مذبحة كفر قاسم ليست إلا مجرد نموذج لما قامت به العصابات الصهيونية لتهجير الفلسطينيين عن بلدانهم وقراهم قسرا..

التاريخ المنسـي
والمسـكوت عنه

القديسة فيرينا

في القرن الرابع الميلادي، كوّن الإمبراطور الروماني "دقلديانوس" الكتيبة المصرية أو ما تعرف بـ"الكتيبة الطيبية"، نسبة إلى مدينة طيبة، وكان قوامها 6600 مقاتل من أبناء طيبة (الأقصر حاليا)، وهي كتيبة قتالية من المصريين، كانت جزءً من الجيش الروماني الكبير، هذه الكتيبة كانت من أفضل الكتائب في الجيش الروماني، واشتهر جنودها بالشجاعة والبسالة، وكان قائدها يدعى "موريس" (القديس موريس فيما بعد).

بأوامر من الإمبراطور "دقلديانوس" سافرت "الكتيبة الطيبية" إلى أوروبا لمساعدة الجيش الروماني في إخضاع تمرد بأرض قبائل الغال (فرنسا حاليا). وسافر مع "الكتيبة" إلى ميدان الحرب فرقة من "العذارى المصريات" (هكذا تذكر في السواد الأعظم من المصادر "العذارى")، بغرض رعاية شئون المقاتلين من مأكل وملبس وتطبيب ومعالجة الجرحى. وكانت ضمن العذارى المصريات فتاة صعيدية اسمها "فيرينا" (القديسة فيرينا فيما بعد)، يحكى عنها الكثير من الحكايات، والتي تصل في بعض المصادر إلى المغالاة في قدراتها، مثل القدرة على شفاء مرضي الجزام وما

إلـى ذلـك مـن المعجـزات (وهـذا شـأن الروايـات الشعبية التي تُلبس أبطالها التـاريخيين ثوبا مـن المبالغة والتبجيل الزائد عن الحد)

وقد تعددت الروايـات، مـن مصـدر إلـى آخـر، حـول "الكتيبة الطيبية" وفرقـة المصـريات العـذارى، ومـا جرى معهم في ميدان القتال، ورغم اختلاف بعض المصادر في بعض التفاصيل، لكـن الحقـائق التـي أجمعـت عليهـا كـل المصـادر، لا يمكـن إنكارهـا أو التغاضي عنها.

الفتاة الصعيدية التي غزت أوروبا

في مدينـة "تمبورتـاخ" بسـويسـرا، وعنـد منتصـف الجسـر المقـام علـى نهـر الـراين بـين سـويسـرا وألمانيا يوجد تمثال للقديسة فيرينا وهـي تحمـل بإحدى يديها أبريقًا بـه مـاء وفـي الأخـرى "مشـط فلاية"، تستخدمه المصريات منذ العصر الفرعوني. وذلك تخليداً للدور الذي قامـت بـه هـذه المصـرية في العنايـة بالمرضـى فـي تلـك المنـاطق، وفـي تعلـيم أهلهـا النظافـة الشخصـية، منـذ أكثـر مـن خمسة عشر قرنا.

واليـوم يبلـغ عـدد الكنـائس التـي تحمـل اسـم القديسة فيرينا في سويسرا وحدها 70 كنيسـة، وفـى ألمانيـا 30 كنيسـة، وتحتفـل سـويسـرا

بمناسبة رحيلها في أول سبتمبر من كل عام. أما الكنيسة القبطية الأرثوذكسية فتحتفل بتذكار رحيلها في منتصف سبتمبر (4 توت حسب التقويم القبطي)، وبحسب الكتاب التاريخي الكنسي (السنكسار)، تُعيّد الكنيسة بتذكارها في 4 من شهر توت" الموافق 15 سبتمبر من كل عام.

وفي عام 1986 م، أحضر وفد سويسري إلى مصر جزء من رفات "القديس موريس" و"القديسة فيرينا"، وتم وضعهما في كنيسة باسم القديس موريس، والقديسة فيرينا وتتبع أسقفية الخدمات بالمقر البابوي للكنيسة القبطية الأرثوذكسية بالعباسية. حيث قام قداسة البابا شنودة الثالث بتدشينها في 22 فبراير عام 1994 م، ويتم الاحتفال بهذه الذكرى في كل عام.

خلدت سويسرا هؤلاء الشهداء من أبطال "الكتيبة الطيبية" بإقامة كنيسة في زيورخ باسم "سان موريس"، قائد الكتيبة، وتخليداً لذكراهم غير سكان الوادي اسم مدينة "أجونام" وأطلقوا عليها اسم قائد الكتيبة المصري فصار اسمها حتى اليوم "سان موريس" في مقاطعة فاليه بسويسرا، وأقيمت بها في منتصف القرن الرابع كنيسة، واختارت مقاطعة زيورخ شعارها وختمها

ثـلاث صـور مـن أبطـال "الكتيبـة الطيبيـة"، وهـم يحملون رؤوسـهم تحـت أذرعهـم. كمـا أن الخـاتم الرسـمي لـبعض المقاطعـات السـويسـرية نقـش عليه رسم ثلاثة من هؤلاء.

تاريخ مضيء مسكون عنه!

ولكن، ماهي تفاصيل قصة هذا التاريخ المنسـي، أو المسكوت عنه، في تاريخ المصريين؟

ومـا هـي قصـة "الكتيبـة الطيبيـة"، و"القديسـة فيرينا"، و"القديس موريس"، التي تسـتدعي كـل هذا التبجيل من قبل الأوروبيين، ولا يعـرف معظـم المصريين شيئًا عنهما تقريبا؟

القديس موريس وشـهداء "أجونام"

أول وثيقـة عـن قصـة "الكتيبـة الطيبيـة" كانـت الوثيقة التي كتبها "يوخاريوس الليـوني"، أسـقف ليـون سـنة 450 م. وحسـب هـذه الوثيقـة التـي وصـلت إلينـا مـن "يوخـاريوس الليـوني"، إنـه فـي القرن الرابع الميلادي في عهـد الحكـم المشـترك للإمبراطـورين ماكسـيميان ودقلـديانوس تشـكلت "الكتيبـة الطيبيـة"، ثـم يـورد عـددًا مـن القصـص المنقولة عن شـهداء الكتيبـة، ويكتـب عـن زيارتـه للمكان الذي شـهد اسـتشـهاد كل أفراد الكتيبة.

وتقول بعض الروايات: إن "الكتيبة الطيبية" انتقلت من طيبة إلى مدينة أجونام (مدينة بسويسرا وحاليًا اسمها مدينة "سان موريس"، في جنوب غرب سويسرا)، حين أمر الإمبراطور "مكسيميانوس" القائد "موريس" وأعضاء الكتيبة بتقديم الذبائح للآلهة قبل الهجوم، فرفضوا إطاعة الأمر، فأمر الإمبراطور بقتل عُشر الفرقة لإرغام بقيتها على طاعته، وعند ذلك تزايد حماس بقية الفرقة للتمسك بالإيمان المسيحي، فغضب الإمبراطور وأمر بقتل عُشر المتبقيين. وكان "القديس موريس" يشجع الجنود على التمسك بإيمانهم مع إعلان ولائهم للإمبراطور. ثم ازداد الإمبراطور هياجًا وأمر بإبادة الكتيبة الموجودة بـ"أجونام"، وتعقُّب بقية كتائب الفرقة الطيبية في مواقعهم بسويسرا وإيطاليا وألمانيا.

وتقول روايات أخرى: إن الكتيبة قسمت إلى قسمين، قسم حارب في فرنسا تحت قيادة مكسيميانوس، الذي أصبح وقتها شريكًا لدقلديانوس، والقسم الآخر بقي في سويسرا، فصدرت الأوامر للقسم الموجود بسويسرا بالتبخير للإله "جوبيتر" و"مارس" واعتبار دقليديانوس إلها، وذلك قبل بدء الحرب، وكان من المعتاد أن تقدم العبادة للآلهة الرومانية الوثنية قبل بدء المعارك. " كانجنود الكتيبة رفضوا معلنين

أنهـم، وإن كـانوا يـؤدون واجبـاتهم للدولـة، فهـم مســـيحيون لا يعبـــدون إلا الإلـــه الحقيقـــي رب السماء والأرض، فصدر الأمر لهم بأن يقفوا صفوفًا، وفي كل صف عشرة جنود، وبعد كل تسعة جنـود يجلد العاشر ثم تقطع رأسه. لكـن البـاقين ازدادوا إصرارًا على موقفهم، فأمر الإمبراطور بتكرار الأمـر، ومع اصرار الجنود على رفض الامتثال للأوامر، أمـر الإمبراطور بإعدامهم جميعا، فكانت مجزرة بشـعة فـي حـق الجنـود المصـريين فـي منطقـة أجونـام .فأصبح يـوم استشـهادهم مـن الأعيـاد الرسـمية في سويسرا، وهم معروفون حاليًا باسـم شـهداء "أجونام" عند الأوربيين، نظـرًا لمقـتلهم فـي هـذه القريـة التـي حُـوّل اسـمها لاحقـًا إلـى "سـان موريس"، على اسم قائد "الكتيبة الطيبية"

صاحبة الفلاية الفرعونية

بعـد المجـزرة الوحشـية التـي وقعـت للجنـود المصريين، لم تغادر "القديسة فيرينا" عائـدة إلـى مصر، بل مكثت في سويسـرا، وبقـي معهـا عـدد مـن العـذارى المصـريات لـم يغـادرن إلـى مصـر. ويعنى اسم "فيرينا" باللغة القبطيـة: "الثمـرة" أو "البذرة الطيبة"، وقد نشأت القديسـة فيرينـا فـي مدينـة "جراجـوس" بـالقرب مـن مدينـة طيبـة (الأقصر).

أقامت "فيرينا" وصاحباتها في كهف يُقال إنه مازال موجودًا حتى الآن، وكانت تخرج من هذا الكهف إلى القرى المحيطة لتقدم الخدمات التطوعية للفلاحين والفقراء، كما أنها كانت على معرفة واسعة بأصول الطب القديم الموروث من أيام الفراعنة، وهو ما أعانها على مساعدة المرضى، وتعليم سكان القرى المحيطة أسس العلاج من الأمراض باستعمال بعض الأعشاب الطبية.

وعندما لاحظت جهل السكان بالمبادئ الأساسية للنظافة والقواعد الصحية، علّمتهم النظافة الجسدية والطهارة وتسريح الشعر والاستحمام والاهتمام بالنفس، وقد عُرفت بينهم بـ "صاحبة الفلاية الفرعونية"، حيث استخدمت موروثها الفرعوني في مجال النظافة ونشرت بينهم ثقافة استخدام المشط المزدوج "الفلاية" لتصفيف شعورهم، وقتل حشرات الرأس.

يقول القمص يوحنا فايز، أستاذ العهد الجديد، بالكلية الإكليريكية بالكنيسة القبطية الأرثوذكسية: "إن أيقونات القديسة فيرينا في مصر والعالم نراها ممسكة بمشط مصري والذي نسميه "بالفلاية"، إن هذا المشط يعود إلى عصر الفراعنة واستمر ليومنا هذا، ويصنع من الخشب

والآن مـن البلاسـتيك، مضـيفًا أن الأقبـاط كـانوا يصنعونه من العاج، وله ناحية ذات أسنان واسـعة لفرد الشعر وناحية أخرى ضيقة للتنظيف وتسليك الشعر أيضًا".

ولم يكن مصدر رزقها يعتمد علـى التمـريض، فقـد كانت تقـوم بتلـك الأعمـال الخدميـة طواعيـة دون مقابل، لكنهـا اعتمـدت علـى خبرتهـا فـي حياكـة الملابس وعلمهـا بفـن التطريـز، فسـاعدتها امـرأة عجوز سويسـرية، علـى بيـع عمـل يـديها وشـراء الطعام لها ولصاحباتها معها، وبدأ الأهالي يتعرفون عليها، وتعلمت لغتهم حتى أجادتهـا. وكانـت تـزور مـدافن شـهداء "الكتيبـة الطيبيـة". وقـد اعتبرهـا الكثيـر مـن المـؤرخين "أم الراهبـات فـي أوروبـا"، حيث حظيت "القديسة فيرينا" باهتمام الأوروبيين الذين اتخذوها مثلا يحتذى به في النظافة، حتـى إن المؤرخين قالوا عنها إنها السيدة التـي علمـت أوروبا النظافة.

وفي 15 سبتمبر عام 344 م (4 مـن شـهر تـوت) توفيت "القديسة فيرينا"، عن عمر يناهز 64 عاما. وتحتفـل سويسـرا بمناسـبة رحيلهـا فـي أول سـبتمبر، أمـا الكنيسـة القبطيـة الأرثوذكسـية فتحتفل بتـذكار رحيلهـا فـي منتصـف سـبتمبر (4 توت)، من كل عام

البشتيلي

بعد أن تسلم الجنرال كليبر قيادة الحملة الفرنسية، نتيجة اضطرار نابليون للعودة إلى بلاده بعد أن وصلته الأخبار بتأزم موقف فرنسا داخليًا وخارجيا، اندلعت ثورة القاهرة الثانية ضد الاحتلال الفرنسي لمصر في 20 مارس عام 1800م، وقد انطلقت هذه الثورة من حي بولاق أبو العلا بقيادة الحاج مصطفى البشتيلي، أحد أعيان بولاق، ثم انتقلت الشرارة إلى باقي الأحياء، وكما انتقلت شرارة الثورة من حي بولاق إلى باقي أحياء مصر، تنوع أيضًا زعماء الثورة في أحيائها المختلفة، مثل السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، وكبير التجار أحمد المحروقي، والشيخ الجوهري..

في هذا الوقت، وعلى أطراف القاهرة، كانت تدور المعارك في منطقة عين شمس بين قوات الحملة الفرنسية بقيادة الجنرال كليبر وفرق من الجيش العثماني، وما أن وصلت أسماع أهل القاهرة أصوات المدافع في ميدان المعركة حتى دبت الثورة في حي بولاق، يقول الجبرتي في كتابه "عجائب الآثار في التراجم والأخبار": "وأما بولاق فإنها قامت على ساق واحد، وتحزم الحاج مصطفى البشتيلي وأمثاله وهيجوا العامة، وهيأوا عصيهم وأسلحتهم ورمحوا وصفحوا، وأول ما بدأوا

به أنهم ذهبوا إلى وطاق (نطاق) الفرنسيس، الذي تركوه بساحل البحر "يقصد النيل" وعنده حرسية (أفراد حراسة) منهم، فقتلوا من أدركوه منهم، ونهبوا جميع ما فيه من خيام ومتاع وغيره، ورجعوا إلى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودايع التي للفرنساوية، وأخذوا ما أحبوا منها، وعملوا كرانك (حصار) حوالي البلد ومتاريس واستعدوا للحرب والجهاد".

الثورة تعم أحياء القاهرة

بعد ذلك اتجه ثوار بولاق نحو قلعة قنطرة الليمون لاقتحامها، فردت حامية القلعة بنيران المدافع، ودار القتال بين الطرفين حتى انتهى بقتل 300 من الثوار، وكان من نتيجة ذلك أن هب بعض من أهالي الأحياء الأخرى لنجدة ثوار بولاق، ثم عمت الثورة أحياء القاهرة، خاصة بعد انتشار شائعات بهزيمة كليبر وجيشه في معركة عين شمس، فرغم عدم صدق هذه الأخبار، حيث إن الجيش الفرنسي كان هزم العثمانيين في هذه الموقعة، إلا أن انتشار هذه الشائعات زاد من حماسة المصريين وانتفضت معظم أحياء القاهرة وعمت الثورة أحياء المدينة كافة .

وعندما عاد كليبر إلى القاهرة كانت الثورة في أوجها، فحاول إعادة تنظيم قواته وتوزيعها للقضاء

على الثورة التي وصفها قائلا: "استخرج الأعداء "يقصد أهل مصر" مدافع كانت مطمورة في الأرض، وأنشأوا معامل للبارود ومصانع لصب المدافع وعمل القنابل، وأبدوا في كل ناحية من النشاط ما أوحت به الحماسة والعصبية، هذه هي بوجه عام حالة القاهرة عند قدومي إليها "بعد معركة عين شمس"، وإني لم أكن أتصورها في هذه الدرجة من الخطورة".

استمرت الثورة مشتعلة لمدة 33 يومًا (من 20 مارس حتى 21 ابريل)، لجأ خلالها كليبر إلي محاولة عقد صلح مع الثوار مستعينًا في ذلك بأعضاء الديوان من مشايخ وغيرهم، واستعان أيضًا بالمماليك مثل مراد بك والبرديسي وغيرهم، لكن كل محاولات الصلح باءت بالفشل الذريع حيث رفض الثوار مبدأ التفاوض أصلاً مع كليبر والفرنسيين .

التنكيل بأهل بولاق

واستمرت محاولات كليبر مرة بعد أخرى، يقول الجبرتي: "فكرروا عليهم المراسلة وهم لا يزدادون إلا مخالفة وشغبا، فأرسلوا في خامس مرة فرنساويًّا يقول: أمان أمان سوا سوا، وبيده ورقة من ساري عسكر، فأنزلوه من على فرسه وقتلوه، وظن كامل أهل مصر أنهم "يقصد

الفرنسيين" إنما يطلبون صلحهم عن عجز وضعف وأشعلوا نيران القتال، وجدوا في الحرب من غير انفصال... وظن أهل بولاق أن الباعث على ذلك نصرتهم، فصمموا على ذلك للحرب، واستمر هذا الحال بين الفريقين إلى يوم الخميس الموافق لعاشر برمودة القبطي، وسادس نيسان الرومي (أبريل)، فغيمت السما غيمًا كثيفًا، وأرعدت رعدًا مزعجًا عنيفًا، وأمطرت مطرًا غزيرًا، وسيلت سيلاً كثيرًا، فسالت المياه في الجهات، وتوحلت جميع السكك والطرقات، فاشتغل الناس بتجفيف المياه والأوحال".

انتهز الفرنسيون انشغال الأهالي بإخراج المياه من المنازل التي أغرقتها السيول، وهجموا بقوة وعنف واخذوا يطلقون نيران مدافعهم على كل الأحياء. نال أهل بولاق ما لم ينله أي مكان آخر من أحياء القاهرة من تنكيل وتقتيل وحرق وسلب ونهب، يقول الجبرتي: "وصارت القتلى مطروحة في الطرقات والأزقة، واحترقت الأبنية والدور والقصور... ثم استولوا على الخانات والوكايل والحواصل والودايع والبضايع، وملكوا الدروب وما بها من الأمتعة والأموال والنسا والصبيان والبنات ومخازن الغلال... وما لا تسعه السطور ولا يحيط به كتاب ولا منشور، والذي وجدوه منعكفًا في داره أو طبقته ولم يقاتل، ولم يجدوا عنده سلاحًا

نهبوا متاعه وعروه من ثيابه ومضوا وتركوه حيّا.... وامسكوا بالحاج مصطفى البشتيلي ومن وجدوهم من الثوار، وأودعوهم بيت ساري عسكر، وفي اليوم الثالث أطلقوهم وجمعوا عصبة البشتيلي من العامة، وسلموهم البشتيلي وأمروهم بتجريسه في البلدة وأن يقتلوه بأيديهم، لدعواهم أنه هو الذي كان يحرك الفتنة ويمنعهم الصلح".

شيطنة البشتيلي

وعلى الفور بدأت مؤامرة شيطنة الزعيم الذي قاد أهل بولاق إلى الثورة على المحتل الأجنبي، بدأت أبواق الفرنسيين والخونة في إقناع أهل بولاق بأن ما نالهم من دمار لبيوتهم وموت أحبائهم وأقاربهم إنما هو نتيجة حماقة البشتيلي وإثارته للفتنة، وتحريضهم على رفض الصلح، وأن كل ما حدث لبولاق وأهلها إنما هو في رقبة هذا المارق المدعو البشتيلي .

وهنا نحتاج إلى وقفة للتذكر... عندما احتل الفرنسيون مصر كان الحاج مصطفى البشتيلي تاجرًا ثريًا، يمتلك وكالة كبيرة لبيع الزيوت في بولاق أبو العلا، لكنه قرر أن يقاوم الاحتلال الفرنسي فشرع يخزن البارود في براميل الزيت استعداداً ليوم الثورة. يقول عبد الرحمن الجبرتي:

"واستهل شهر ربيع الأول بيوم السبت سنة 1314ه "3 أغسطس 1799م"، وفيه قبضوا على الحاج مصطفى البشتيلي الزيات من أعيان أهالي بولاق وحبسوه ببيت قايمقام، والسبب في ذلك أن جماعة من جيرانه وشوا عنه بأنه بداخل بعض حواصله الذي في وكالته عدة قدور مملوءة بالبارود، فكبسوا على الحواصل فوجدوا بها ذلك كما أخبر الواشي، فأخذوها وقبضوا عليه وحبسوه كما ذُكر، ثم نقلوه إلى القلعة." ولم يذكر الجبرتي متى أفرجوا عنه.

لماذا يتم تجاهل زعيم الثورة؟!

البشتيلي هذا نادرًا ما يذكره أحد، بالرغم من دوره العظيم في تاريخ مصر، لم يُدرّس في كتب التاريخ المدرسية، رغم أن ما قام به أهم وأعظم قدرًا مما قام به الكثير من الذين تمتلئ كتب التاريخ بسيرهم وأعمالهم وانجازاتهم. كان البشتيلي يعيش حياة مترفة مع أسرته، لم يكن ينقصه شيء، لكنه قرر أن يقاوم الاحتلال الفرنسي فشرع يخزن البارود حتى بعد أن قُبض عليه نتيجة وشاية بعض الخونة، خرج من الحبس بعد بضعة أشهر، لكنه قرر أن يستمر فيما يعتقد أنه حق لصالح بلده .

ويـأتي مشــهد النهايـة دراماتيكيًـا بلـون المأســاة والعــار لمــن شــاركوا فيــه حيــث وقــف عســكر الفرنسيس يحملون أسلحتهم، يصوبونها نحو أهل بولاق، وهم يشرفون علـى تجـريس وقتـل الحـاج مصطفى البشتيلي بالنبابيت..... بيد أهل بلده.

حواديت عربية

ابن خلدون

عبد الرحمن ابن خلدون هو صاحب الكتاب العربي الأشهر، في التاريخ، كتاب "العبر، وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر".. والذي يعرف اختصارًا بـ "تاريخ ابن خلدون".

التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا

يقول ابن خلدون: "كان خلدون (الجد العاشر له) قدِم من المشرق في رهط من قومه أهل حضرموت ونزل إشبيلية (جنوب الأندلس، الآن هي مقاطعة في جنوب اسبانيا).. وكانت لهم فيها زعامة ورياسة. ثم رحل جدي فنزل (سبتة)، ثم أرخى زمام مطيته متوجهًا إلى مدينة (عنابة)، فلقيه صاحبها الأمير زكرياء باحتفاء، وأدخله في سلك رجال دولته، وجرى ابنه محمد على سننه في خدمة الدولة، وأدرك ما ناله والده من وجاهة وإقبال. وانتهى أمر ابنه محمد — الذي هو الجد الأدنى لي — إلى السكنى بمدينة (تونس) والانتظام في هيئة الدولة، وكان السلطان أبو يحيى إذا خرج من مدينة تونس يستعمله عليها، ولكن ابنه محمدًا، وهو والدي، عدل عن مسلك السياسة وخدمة الدولة، وآثر مدارسة العلم

ومجالسة الأدباء، فأصبح معدودًا في زمرة العلماء، ومشهودًا له بالتقدُّم في فن الأدب.”

بين دهاليز السياسة وفلسفة العمران

ما كان لابن خلدون أن يصل إلى هذه المكانة العلمية التي أهلته لأن يتربع على قمة العطاء العلمي، لولا اتصاله الوثيق بواقع عصره، ومعايشته لأحداثه، والتفاعل معها تأثيرًا وتأثرًا، فإن “... ما تتمتع به شخصيته من ثراء على المستوى الإنساني والعلمي، راجع إلى أنه لم ينقطع للدرس والتأمل والتنظير داخل حجرة معزولة مليئة بخزانات الكتب. وبالأحرى فان ابن خلدون لم يبدأ في تدوين ملاحظاته، ومن ثم وضْع آثاره العلمية على الورق، إلا بعد رحلة طويلة من التجربة الثرية داخل دهاليز الحكم، معاندًا التيار حينًا مصارعًا له، وسائرا باتجاهه مواكبًا له أحيانًا أخرى، محترقًا بنار المؤامرات والصراعات بين الأمراء والحكام إلى الحد الذي أودى به إلى غياهب السجون غير مرة.”

وعلى الرغم من أن ابن خلدون بدأ بمباشرة حياته العملية داخل بلاط السلطان أبى إسحاق، حاكم إقليم (بجاية) بأرض تونس، وهو في حوالي العشرين من عمره، إلا أنه لم ينقطع إلى التأليف والكتابة، قبل بلوغه الخامسة والأربعين من

العمر، مستفيدًا من تجاربه ومغامراته وتقلبات الأحوال في منطقتي المغرب والأندلس، وعندما بدأ الكتابة، اعتزل العمل السياسي، وأمضى خمس سنوات في كتابة أهم آثاره على الإطلاق، كتاب "العبر، وديوان المبتدأ والخبر....." (تاريخ ابن خلدون)، الذي يحوى مقدمته (ويطلق عليها "مقدمة ابن خلدون")، التي ذاع صيتها في الغرب قبل الشرق. غير انه لم يتم كتابة صفحات هذا الأثر العظيم إلا في مصر وهو في الخامسة والستين من عمره.

رحلة ابن خلدون من الغرب للشرق

عندما نتتبع حياة ابن خلدون فإن علينا أن نتأهب للتجوال خلفه عبر أرضنا العربية من أقصى غربها على ساحل الأطلنطي، إلى أقصى شمالها الشرقي عند الحدود التركية، ومن أعلى الشمال الغربي داخل أراضي الأندلس، إلى أقصى شرقها حيث الجزيرة العربية... خلال القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي، فإن هذه المساحة الجغرافية المتسعة، بكل ما تضمه من أناس وحكام وأحداث ونجاحات وإخفاقات، كل هذه المساحة من الأحداث تصبح موضوعنا، فهي فترة حياة ونشاط ابن خلدون.

كانت بلاد المغرب العربي في هذه الآونة تمور بالأحداث والصراعات، التي وصلت إلى حد الاقتتال في غالب الأحيان بين زعماء وملوك المدن وسلاطينها (محمد عبد الواحد بن أبى حفص، سلطان الدولة الحفصية، وبنو مدين، بالمغرب الأقصى، ويغمراسن بن زيان زعيم بني عبد الواحد بالمغرب الأوسط، والسلطان الشاب أبو إسحاق، ووزيره تافراكين في بجاية، والسلطان أبو يوسف يعقوب، والسلطان المرينى، والسلطان أبو سالم، والسلطان تاشفين... الخ). كل هذه الصراعات والمؤامرات كان ابن خلدون في القلب منها تأثرًا وتأثيرًا.

وعندما عبر ابن خلدون المضيق إلى أرض الأندلس، كان هناك في قلب الأحداث أيضا، حتى إن السلطان محمد ابن يوسف الأحمر، سلطان غرناطة، أرسله سفيرًا عنه إلى ملك قشتالة بيدرو بن الفونسو الحادي عشر، فنال إعجاب ملكها الذي عرض على ابن خلدون الانضمام إلى بلاطه ليكون من رجال مملكته، إلا أن ابن خلدون اعتذر عن قبول العرض. (مملكة قشتالة هي إحدى أجزاء مملكة ليون في الشمال الغربي لشبه الجزيرة الإسبانية).

وعندما رحل ابن خلدون إلى الشرق، واستقر بأرض مصر حتى نهاية عمره (عاش بمصر حوالي ربع قرن من الزمان) كانت حياته أقل صخبًا من تلك الفترة التي قضاها بالمغرب، إلا أنها لم تخل من المتاعب، إذ لم ينعم خلالها بحياة هادئة بعيدا عن مؤامرات الحكم، فيكفي أن نشير في هذه العجالة إلى أنه تولى منصب القضاء (على المذهب المالكي) وأقصي عنه ست مرات

وفى مصر عاصر ابن خلدون تقلب السلاطين على تخت الحكم، فبعد وصوله إلى القاهرة بفترة وجيزة، خلع السلطان برقوق، السلطان الصالح بن الأشرف شعبان بن قلاوون، منهيًا بذلك حكم بني قلاوون ودولة المماليك الأتراك بمصر، مؤسسًا لدولة المماليك الجراكسة، وعاصر عودة السلطان الصالح المنصور بن قلاوون وخلع برقوق، ثم خلع الصالح المنصور وعودة برقوق. ومات بمصر أيام سلطنة الناصر فرج بن برقوق.

في القاهرة جلس للتدريس بالأزهر الشريف، وأصبح عالمًا من علمائه، وصاحب عمود شأنه شأن علماء الأزهر وأساتذته. وفى القاهرة أيضًا أتم "كتاب العبر....."، أو "تاريخ ابن خلدون"، كما أشرنا سابقا، غير أن أهم ما يثير انتباهنا في فترة حياة ابن خلدون بمصر، علاقته بتلميذه

النجيب "المقريزي"، لما في ذلك من أثر فيما تركه المقريزي من مؤلفات، تميزت بميل واضح لدى المقريزي نحو درس التاريخ المصري وتدوينه ناظرًا بعين إلى أحداث التاريخ، وبالعين الأخرى إلى الاعتبارات الاجتماعية والاقتصادية التي أسهمت في تشكيل تلك الأحداث.. "وهو ما لم يفعله المؤرخون المصريون، منذ الفتح الإسلامي حتى نهاية الحكم العثماني، ممن سبقوه أو لحقوه على السواء".

بين ابن خلدون وتيمورلنك

ولعل لقاء ابن خلدون بـ"تيمورلنك"، قبيل نهاية حياة ابن خلدون، يعد من الأحداث المهمة، ليس فقط بالنسبة لابن خلدون، وإنما أيضًا بالنسبة لمستقبل الصراع بين مصر والشام من جهة المشرق العربي عامة، وهذه القوة الغازية الغاشمة الباطشة التي هددت المنطقة بأسرها من جهة أخرى، فلما ذهب إلى الشام عاش أحداث غزوات تيمورلنك، الذي أمعن في سفك الدماء وتخريب العمران، فسعى إلى الاجتماع به ـ أو أجبر على ذلك ـ ودار بينهما حديث طويل انتهى إلى نجاة دمشق من الغزو، ونال فيه ابن خلدون من تيمورلنك الأمان للقضاة والأعيان والعمال.

في تلك الفترة كانت الدولة العربية في الأندلس تخبو رويدًا رويدًا، وانحسر سلطانها حتى أصبح محصورًا داخل حدود غرناطة، ولكن على الرغم من ذلك استمر الأدب والفن الأندلسي يقاوم عناصر الفناء.

فلسفة العمران البشري

يقول المستشرق "كارادوفو"، في الجزء الأول من مؤلفه مفكري الإسلام: "أنجبت أفريقيا الإسلامية اجتماعيًّا من الطبقة الأولى في شخص ابن خلدون، الذي لم يُعرف من قبله عالم أوتي تصورًا عن فلسفة التاريخ أصح ولا أجلى من تصوره، فإن أحوال الأمم الروحية والأسباب الطارئة عليها القاضية بتغييرها، وكيفية تأسيس الدول، وما تدخل فيه من الأطوار وتنوع المدنيات وعوامل نموها أو تقلصها، كل ذلك كان من المباحث التي خاض فيها إلى أقصى ما يمكن الخوض فيه، وذلك في مقدمته المشهورة. ولم نجد في أوروبا ـ إلا في القرن الثامن عشر للميلاد ـ أناسًا حاولوا أن يستخرجوا أسرار التاريخ استخراجه بعد أن كانت أقفالًا مستحجبة تعذر فتحها، فهو من دون شك الجد الأعلى لعلمائنا الاجتماعيين المحدثين."

ولذلك يُعد ابن خلدون المُؤسس الحقيقيّ لعِلم الاجتماع (أو ما يسميه هو بعلم العمران

البشري)، وقد وعى ابن خلدون أنّه أسّس علمًا جديدًا بالغ الأهميّة، حين كتب في مقدّمته: "وأعلم أنّ الكلام في هذا الغرض مُستحدَث الصنعة، غريب النزعة، غزير الفائدة"، فهو مؤسس علم الاجتماع قبل أن يعرف العالم أجمع، بشرقه وغربه، هذا العلم كأحد أفرع العلوم الإنسانية، وكان على الغرب آن ينتظر أكثر من أربعة قرون قبل إن يضع "أوجست كونت" الفرنسي الأصول والمبادئ الحديثة لهذا العلم.

وبقدر ما كانت أفكار ابن خلدون ونظرياته الواردة بمقدمته، سببًا في شهرته بين علماء وباحثي الغرب المحدثين، بقدر ما أثارت له من المتاعب بين أبناء زمنه، فقد عسر عليهم استيعاب هذا الفكر المستحدث بالنسبة لهم آنئذ. ويعد ابن خلدون برأي المحدثين خير من يمثل الفكر الاستقرائي التجريبي في الحضارة العربية.. فقد هاجم الفلسفة الماورائية (الميتافيزيقية)، وكشف تهافتها، ودعا إلى فلسفة وضعية مستمدة من تأمل البيئة وظروفها، وإعمال العقل في درس مظاهرها وملابساتها. فكان له السبق في الكشف عن القوانين التي تسود المجتمعات البشرية، والآليات التي تحكم حركة التاريخ الإنساني، وهو أخيرًا رجل السياسة والأدب، الشاعر والإداري المحنك، المؤرخ والناقد

والفيلسوف، الذي أرسي دعائم علم الاجتماع أو فلسفة العمران.

المصادر:

عبد الرحمن بن خلدون، التعريف بابن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا، منشورات دار الكتاب اللبناني، 1979.

محمد الخضر حسين، تاريخ ابن خلدون ومُثل من فلسفته الاجتماعية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2013.

الأمير شكيب أرسلان، تاريخ ابن خلدون.. ابن خلدون أمة وحده (تحقيق وتعليق)، هنداوي للتعليم والثقافة، 2012.

ابن المقفع

ولد "روزبه بن داذويه" ــ الذي أصبح فيما بعد "عبد الله بن المقفع" ـ في العام 106 هـ، وهو من خورستان، البلاد القريبة من مدينة البصرة العراقية، التي تعيش فيها القبائل العربية منذ الفتح الإسلامي، ويتحدث عامتهم اللغتين الفارسيّة والعربيّة.. درس ابن المقفع الفارسية وتعلّم العربية في كتب الأدباء، نشأ على المجوسية وكان له نشاط في نشر تعاليمها وترجمتها إلى العربية..

أعلن إسلامه، فتغير اسمه وأصبح "عبد الله بن المقفع"، وقد لقب والده بالمقفع، لأنّ الحجّاج بن يوسف الثقفي، كان قد ولى والده (داذويه) خراج فارس، فأخذ بعض المال، فضربه الحجاج حتى تقفّعت يداه (أي تورمتا واعوجت أصابعهما ثم شُلتا).

فاتح باب الترجمة

لقد نقل ابن المقفع إلى اللغة العربية تراثًا ضخمًا من آثار اللغات الفارسية والهندية واليونانية، وهو أول من فتح هذا الباب الذي أتاح للعرب التعرف على ثقافات من سبقوهم من الأمم. ومن أهم الكتب التي ترجمها من الآثار الهندية كتابه

الشهير: كليلة ودمنه، وقد اختلف النقاد حوله، فمنهم من يرى أن ابن المقفع ترجم الكتاب ونقله عن الفارسية، ومنهم من يرى أن ابن المقفع مؤلفه، وضع فيه أفكاره في العلاقة بين الحاكم والمحكوم على ألسنة الوحوش والطير، وادعى انه ترجمة لكتاب هندي، كي يتهرب من غضب الحاكم وعقابه.

أما مؤلفات أو إبداعات ابن المقفع، فهي أربع رسائل أدبية، في موضوعات مختلفة، وهي: "الأدب الكبير"، وفيه كلام عن السلطان وعلاقته بالرعية وعلاقة الرعية به، و"الأدب الصغير)"، حول تهذيب النفس وترويضها على الأعمال الصالحة، و"الدرة اليتيمة"، وأخيرًا "رسالة الصحابة"، التي أدت به إلى نهايته الحزينة البشعة.

ظل الله الممدود في أرضه

في سنة 136 هـ، بعد موت "ابو العباس السفاح"، أول خلفاء بني العباس، بمرض الجدري، بويع "أبو جعفر المنصور"، ليصبح الخليفة الثاني في الدولة العباسية. ويعتبره الكثير من المؤرخين المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، فبينما قام "السفاح" بالاستيلاء على مقاليد الأمور من بين يدي الأمويين، وانهي ذكر خلافتهم، إلا أن مدة حكمه لم تدم إلا أربعة أعوام

وأشهر معدودات، أما "المنصور" فقد حكم لمدة تزيد عن عشرين عامًا، أرسى خلالها دعائم الدولة وسلمها لخلفه دولة قوية قادرة على العيش والاستمرار..

وكان المنصور يقول عن نفسه: "أنا ظل الله الممدود في أرضه، إن شاء بسطه فأعطى، وإن شاء قبض فأمسك".

كان عم المنصور، "عبد الله بن عليّ" يرى انه أحق بالخلافة من ابن أخيه فرفض بيعته.. ولما هزمه المنصور فر إلى البصرة واحتمى بأخويه سليمان وعيسى، وبقي هناك خوفًا من المنصور، فطلبه المنصور منهما فأبيا أن يسلماه إياه إلا بأمان يمليان شروطه.. وكتب هذا الأمان عبد الله بن المقفع، وكان من جملة ما كتبه: "متي غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله، فنساؤه طوالق، ودوابه حبس وعبيده أحرار، والمسلمون في جل من بيعته"، فأغضب ذلك الخليفة "المنصور" غضبًا شديدًا، وكان من جملة الأسباب الداعية لقتله.

رسالة الصحابة

هناك أيضًا "رسالة الصحابة"، التي كتبها "ابن المقفع"، وبعث بها إلى الخليفة "المنصور"، يذكره فيها بأمور تتعلق بشئون الدولة وسياساتها،

وهي تشابه من بعض الوجوه التقارير التي يرفعها رجال الدولة اليوم إلى الملوك..

يقصد ابن المقفع بـ"الصحابة": حاشية الخليفة المنصور وأعوانه ورجاله من قضاة، وقادة جند، وجباة، وعمال خراج، وولاة أقاليم.. وقد خط "ابن المقفع" رسالة الصحابة، وأعطاها للورّاقين، وبعث بها للخليفة أبي جعفر المنصور، كرسالة من ناصح أمين، لا يريد سوى الإصلاح ما استطاع، ناصح لا يقول بمثل نصحه أحد من صحابة الحاكم للحكام، وأمين لم يستأمنه أحد على مصلحة أحد.

وقد استطاع ابن المقفع في رسالة الصحابة، أن يضع يده على أمراض المجتمع العباسي الرئيسية، وأولها مرض السلطة الذي أصاب الخلفاء، ومرض الفساد الذي أصاب رجال البلاط، والجند، والولاة، ومرض اضطراب أحكام القضاة لاختلاف معتقداتهم ومذاهبهم الدينية، وعدم وجود قوانين حاكمة فيما استجد من أمور على المجتمع الإسلامي.. وبالتأكيد، فإن ما أقدم عليه ابن المقفع من تعرية لأمراض الحكم والحاكم والحاشية، لم يعجب "المنصور"، وأثار غضبه، وهو الذي يقول عن نفسه: "أنا ظل الله على الأرض"..

نهاية درامية حزينة

عندما وصلت (رسالة الصحابة) إلى "المنصور" وقرأها، استشاط غضبًا وصاح: "أما أحد يكفينيه".. فتلقف حاكم البصرة "سفيان بن معاوية"، الخيط وقال: "أنا له يا أمير المؤمنين..

كان ابن المقفع لا يملأ عينه "سفيان" هذا، ودائمًا ما كان يحط من قدره، ويسخر به ويتندر عليه، ويعرّض به، وكان ينال من أم سفيان أيضًا، وعندها قال سفيان لابن المقفع: "والله لأقطعنك إربًا إربًا وعينك تنظر..

فلما قبض سفيان على ابن المقفع بالحيلة، أمر بقِدر كبير به زيت يغلي، ثم أمر فقُطع من ابن المقفع عضو، ثم ألقي بالعضو في القدر، وابن المقفع ينظر، وظل هكذا حتى أتى على جميع جسده. كان يبلغ من العمر آنذاك 36 سنة، وكان ذلك في عام 142 هـ 759 م.

وبعد مقتله على يد "سفيان" حاكم البصرة، بأمر من الخليفة "أبي جعفر المنصور"، أشاعوا بين الناس أن ابن المقفع كان زنديقا... اتهموه بالزندقة، لكن لم يكن لديهم دليل مادي لإثبات زندقته وتبرير قتله، ليس في آثار ابن المقفع ما يدل على زندقته، فالزندقة ليست السبب

الحقيقي لمقتله وإنما كانت للتغطية.. حين نطالع مؤلفـات ابـن المقفـع التـي أنتجهـا خـلال عمـره القصير، لن نجد أي اثر يمكن أن يشـير مـن قريـب أو بعيـد إلـى صـحة هـذا الاتهـام المعلـب سـابق التجهيز، "الزندقة"، الذي نال معظم ـ إن لم يكـن كل ـ مفكر لا تكون أفكـاره وطرحـه السياسـي أو اجتهاده، على هوى الحاكم.

المصادر

سـليمان فيـاض، الوجـه الآخـر للخلافـة الإسـلامية، دار ميريـت للنشـر والمعلومات، الطبعة الأولى، 1999.

المسعودي، مـروج الـذهب ومعـادن الجـوهر جـزء 3، مطـابع دار الأندلس، 1966.

خليل مردم، ابن المقفع: أئمة الأدب (الجزء الثاني)، دار المحـرر الأدبي، نسـخة اليكترونية.

عبد الله بن المقفع، آثار ابن المقفع، دار الكتب العلميـة، بيـروت – لبنان، الطبعة الاولى 1989.

الحجاج بن يوسف الثقفي

في عام 73 من الهجرة، قرر عبد الملك بن مروان التخلص من عبد الله بن الزبير، فجهز جيشًا ضخمًا لمنازلة عبد الله ابن الزبير في مكة، وأمّر عليه الحجاج بن يوسف الثقفي، فخرج بجيشه، فسار إلى مكة وحاصر ابن الزبير فيها، وضرب الكعبة بالمنجنيق حتى هدمها.

ضرب الكعبة بالمنجنيق وهدمها

يذكر لابن عبد ربه في العقد الفريد ما نصه: "فجعلوا يرمون بالمنجنيق فقتلوا خلقًا كثيرًا، وكان مع الحجاج خمس مجانيق فألح عليها بالرمي من كل مكان، وحبس عنهم الميرة (الطعام) والماء، فكانوا يشربون من ماء زمزم، وجعلت الحجارة تقع في الكعبة، والحجاج يصيح بأصحابه: يا أهل الشام الله الله في الطاعة. ثم أعلن الحجاج الأمان لمن سلم من أصحاب ابن الزبير، وأمنه هو نفسه، غير أن عبد الله بن الزبير لم يقبل أمان الحجاج، وقاتل رغم تفرق أصحابه عنه الذين طمعوا في أمان الحجاج فقتل. وكان لابن الزبير اثنتان وسبعون سنة، وولايته تنوف عن ثماني سنين، وللحجاج اثنتان وثلاثون سنة....."

هـدم الحجـاج الكعبـة، وقتـل عبـد الله ابـن الزبيـر وصـلبه، وهـو ابـن الزبيـر بـن العـوام أحـد العشـرة المبشرين بالجنة، وذات النطاقين بنـت أبـي بكـر، وأرسـل إلى أمه، أسـماء بنت أبـي بكـر، أن تأتيـه، فأبــت، فأرســل إليهــا: "لتــأتين أو لأبعــثن مــن يسحبك"، فأرسلت إليه: "والله لا آتيك حتى تبعث إلـيّ مـن يسـحبني".. فلمـا رأى ذلـك أتـى إليهـا فقـال: "كيـف رأيتنـي صـنعت بعبـد الله؟" قالـت: "رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليـك آخرتـك، وقد بلغنـي أنـك كنـت تعيـره بـابن ذات النطـاقين، فقد كان لـي نطـاق أغطـي بـه طعـام رسـول الله صلى الله عليـه وسـلم مـن النمـل، ونطـاق لا بـد للنسـاء منه"، فانصرف ولم يراجعها..

إلى حكم العراق

وبعد أن انتصر الحجاج في حربه، أقره عبـد الملـك بن مروان على ولاية مكة وأهل مكة. وكان وإياهم وأهـل المدينـة علـى خـلاف كبيـر، وفـي 75 مـن الهجـرة، قـدم عبـد الملـك بـن مـروان المدينـة، وخطب على منبر النبي صـلى الله عليـه وسـلم، فعزل الحجـاج عـن الحجـاز لكثـرة الشـكايات فيـه، وأقره على العراق فنزل بالكوفة، وكـان قـد أرسـل من أمر الناس بالاجتماع في المسـجد، ثـم دخـل المسـجد ملثمًـا بعمامـة حمـراء، واعتلـى المنبـر

فجلس وإصبعه على فمه ناظرًا إلى المجتمعين في المسجد، فلما ضجوا من سكوته خلع عمامته فجأة وقال خطبته المشهورة التي بدأها بقول:

يا أهل العراق.. أنا الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود..

ثم زعق فيهم:

أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا

متى أضع العمامة تعرفوني

واستمر في إلقاء خطبته التي جاء فيها :

والله يا أهل العراق إني لأرى رؤوسًا قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى، وانى دعوت الله أن يبلوكم بي فاستجاب..... والله يا أهل العراق، إن أمير المؤمنين عبد الملك وجهني إليكم، ورماكم بي وأمرني بإنصاف مظلومكم وإمضاء الحكم على ظالمكم. يا أهل العراق، يا أهل النفاق والشقاق ومساوئ الأخلاق، إنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مناخ الضلال، وسننتم سنن الغي .....

واستمر في خطابه على النحو السابق، ثم التفت إلى غلام كان معه، وخاطبه قائلا: اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام.. فقال الغلام: "بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله..."، فسكتوا فقال الحجاج من فوق المنبر: "أسكت يا غلام"، فسكت، فقال:" يا أهل الشقاق، ويا أهل النفاق ومساوئ الأخلاق. يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون السلام؟ والله لئن بقيت لكم لأؤذبقنكم أدباً، ولتستقيمن لي..... اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام"، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم فلما بلغ إلى موضع السلام صاحوا وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته، فأنهى خطابه ودخل قصر الإمارة".

(وردت هذه الخطبة، بمضمونها، وباختلافات يسيرة، في مراجع كثيرة.)

سفّاكًا سفّاحًا مُرعبًا باتفاق المؤرخين

يقول الإمام شمس الدين الذهبي، في سير أعلام النبلاء: ".... أهلكه الله في رمضان سنة خمس وتسعين كهلا، وكان ظلومًا جبارًا خبيثًا سفّاكًا للدماء، وكان ذا شجاعة وإقدام ومكر

ودهاء، وفصاحة وبلاغة وتعظيم للقرآن، قد سُـقتُ من سوء سيرته في تاريخي الكبير، وحصاره لابـن الزبير بالكعبة ورميه إياها بالمنجنيق وإذلاله لأهل الحرمين، ثم ولايته علـى العـراق والمشـرق كلـه عشـــرين ســـنة، وتـــأخيره للصـــلوات، إلـــى أن استأصله الله، فنسبُّه ولا نحبه بل نبغضه في الله فإن ذلك من أوثق عرى الإيمان".

دامت ولاية الحجاج علـى العـراق عشـرين عامـاً، ويقـال إنـه كـان أوصـى يزيـد بـن أبـي مسـلم، أن يُدفن سرا، وأن يخفي موضع قبره، كي لا يتعرض للنبش، وترك وصيته، وفيها قال :

"بسـم الله الـرحمن الـرحيم، هـذا مـا أوصـى بـه الحجاج بن يوسف: أوصى بأنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأنه لا يعرف إلا طاعة الوليد بن عبد الملك، عليها يحيا وعليها يموت وعليها يبعث!!!"....

ويُروى أنه قيل له قبل وفاتـه: "ألا تتـوب؟"، فقـال: "إن كنت مسيئًا فليست هـذه سـاعة التوبـة، ثـم إنه دعا فقال :

"اللهم اغفر لي فإنهم يزعمون أنك لا تفعل!!!".

حواديت المحروسة

المقريزى

يتناول المقريزي في كتابه الشهير "إغاثة الأمة بكشف الغمة" تاريخ المجاعات التي نزلت بمصر منذ أقدم العصور إلى سنة 808 هـ (1405 م)، وكان الباعث على تأليف هذا الكتاب فقدان المقريزي لابنته الوحيدة، بموتها بالطاعون الذي اجتاح مصر أثناء المجاعة التي وقعت سنة 1393 م (796 هـ)، في عهد السلطان برقوق، واستمرت حتى سنة 1405 م (808 هـ).

وقد تركت وفاة ابنته أثرًا عميقًا في نفسه، فعكف على الكتابة في تتبع المجاعات التي حلت بمصر على مدار التاريخ، واهتم بتعليلها وتحليلها حتى فرغ من تدوين مادتها العلمية والتاريخية في أقل من عام، وبعد ذلك قام بتنقيح ومراجعة الكتاب وتهذيبه في ليلة واحدة من ليالي المحرم سنة 808 هـ، حيث جاء في الصفحة الأخيرة من المخطوط: "... تيسر لي ترتيب هذه المقالة وتهذيبها في ليلة واحدة من ليالي المحرم سنة ثمان وثمانمائة".

ونلاحظ أن المقريزي عندما اختار هذا العنوان لكتابه، فهو يقصد بـ"الغمة" تلك المجاعات التي ضربت البلاد، وقد كان الفصل الأول من كتابه تحت عنوان: "في إيراد ما حل بمصر من الغلوات

وحكايات يسيرة من أنباء تلك السنوات".. وفيه يستعرض هذه الغلوات أو الأزمات، بداية من زمن طوفان نوح، مرورًا بزمن فرعون، وما وقع في زمن الحاكم بأمر الله، ثم الغلاء في زمن الخليفة المستنصر، وصولا إلى المجاعة التي وقعت في زمن السلطان برقوق حيث ماتت ابنته سنة 806هـ.

فالمقريزي يرى أن تلك المجاعات، وان كانت ترتبط بقصور النيل وشح المياه بسبب ضعف الفيضان، لكنه يرى أن السبب الرئيسي في حدوث تلك المجاعات: "سوء تدبير الزعماء والحكام لشئون البلاد، وغفلتهم عن النظر في مصالح البلاد والعباد"

الشدة المستنصرية

تحتل الشدة المستنصرية، التي ضربت مصر في عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمي، جزءً كبيرًا من الفصل الأول، ذلك أنها تعد "أكثر المجاعات فتكا وأبشعها أثرا"، فلم يعرف المصريون ما هو أبشع منها، ولذا فقد أطلق عليها بعض المؤرخين والباحثين اسم "الشدة العظمى"..

يصف المقريزي ما حاق بالبلاد جراء هذه الأزمة على النحو التالي: "ثم وقع في أيام المستنصر

الغلاء الذي فحش أمره وشنع ذكره، وكان أمده سبع سنين، وسببه ضعف السلطنة واختلال أحوال المملكة، واستيلاء الأمراء على الدولة، واتصال الفتن بين العربان، وقصور النيل، وكان ابتداء ذلك في سنة سبع وخمسين وأربعمائة (1064م)، فنزع السعر، وتزايد الغلاء، وأعقبه الوباء حتى تعطلت الأراضي من الزراعة وشمل الخوف وتعذر السير إلى الأماكن إلا بالخفارة الكثيرة..."

هنا نلحظ أن المقريزي ـ الذي عاش في حلقة من حلقات العصور الوسطى ـ أثبت في هذا المقتطف أنه تجاوز بفكره دائرة العصور الوسطى، إذ استطاع أن يقدم من الآراء والأحكام ما يردده اليوم رجال الفكر في عصورنا الحديثة، ففي هذا الكتاب الصغير "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، وضع المقريزي آراء اقتصادية واجتماعية قيمة، وهي آراء سبق بها المقريزي عصره بكثير. وبعبارة أخرى فالمقريزي في هذا الكتاب لم يكن مجرد مؤرخ فحسب، بل أيضًا ناقدًا اجتماعيًا، ومحللا اقتصاديًا مبرزًا.

المقريزي تلميذ ابن خلدون

ويرى البعض أن المقريزي في عنايته بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية إنما تأثر بأستاذه عبد الرحمن بن خلدون الذي التقي به وتتلمذ على

يديـه، فتـرة وجـود ابـن خلـدون بمصـر. والواقـع أن المـتفحص لكتـاب المقريـزي، سيضـع اليـد علـى وفرة وغزارة من المعلومـات التاريخيـة ذات الطـابع الاجتماعي جعلت من المقريزي مؤرخًا حصيفًا، لا يقف عند حدود الظـاهرة التاريخيـة، بـل يتجاوزهـا إلى الجوهر والقانون الذي يحكمها..

يسـتمر المقريـزي فـي وصـف مـا يحـدث فـي المجاعـات، ليسـتنبط مـن الأحـداث والأزمـات، أسـباب حـدوثها، فهـو يـرى أن هـذه الأزمـات لهـا أسـباب محـددة بعيـدة عـن القـدر الـذي لا يمكـن الفكاك منه، فالأزمات لها أسبابها....

عندما أكل الناس بغلة الوزير

ثـم يسـتمر فـي وصـف مـا حـدث فـي الشـدة المستنصـرية فـي محاولـة لاسـتخلاص الأسـباب الكامنـة وراء مـا يحـدث مـن أزمـات.. "واسـتولى الجوع لعدم القوت حتى بيع رغيف الخبز بخمسـة عشر دينـارا، وأكـل النـاس الكـلاب والقطـط حتـى قلـت الكـلاب، فبيـع كلـب يؤكـل بخمسـة دنـانير، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضا، وقيـل إن الكلب كان يدخل الدار، فيأكل الطفل وهـو قـي المهد، وأمه وأبوه ينظران إليـه فـلا يسـتطيعان أن ينهضا لـدفع الكلـب عـن ولـدهما لشـدة الجـوع... وقيل إن الوزير ركب يومًا على بغلته، وتوجـه إلـى

دار الخلافة، فلما نزل عن البغلة أخذها الناس من غلمانه وأكلوها في الحال، فامسكوا الذين فعلوا ذلك وشنقوهم، وعلقوهم على الخشب فلما باتوا أصبحوا، فلم يجدوا أحدًا من المشانيق، وقد أكلوا من على الخشب".

الفساد، وغلاء الأطيان

يستطرد المقريزي: "... وعلى هذا فبعد استقراء التاريخ واستخلاص العبر، توكلت على الله وكتبت فصلا في بيان الأسباب التي نشأت عنها هذه المحن التي نحن فيها". وحدد المقريزي ثلاثة أسباب:

السبب الأول، وهو أصل هذا الفساد، "ولاية الخطط السلطانية، والمناصب الدينية بالرشوة، كالوزارة والقضاء ونيابة الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل، فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة والولايات العظيمة".

السبب الثاني كما حدده المقريزي فهو: "غلاء الأطيان، حيث بلغ الفدان لهذا العهد نحوًا من عشرة أمثاله قبل هذه الحوادث... ومع أن الغلال معظمها لأهل الدولة أولي الجاه وأرباب السيوف،

استمر السعر مرتفعا لا يرجى انحطاطه... وتعطلت أكثر الأراضي من الزراعة، فقلت الغلال وغيرها مما تخرجه الأرض لموت أكثر الفلاحين وتشردهم في البلاد من شدة السنين وهلاك الدواب ولعجز الكثير من أرباب الأراضي عن زراعتها لغلو البذر وقلة المزارعين".

العملة الجيدة تطرد الرديئة من السوق

أما السبب الثالث الذي أورده المقريزي في أسباب تلك الغلوات والأزمات، فهو "رواج الفلوس".

لقد تناول المقريزي موضوع النقود في مؤلفه "إغاثة الأمة بكشف الغمة"، بشيء من التفصيل، حتى أنه احتاج لما يقرب من نصف عدد صفحات هذا المؤلف، لشرح وبيان أهمية موضوع النقود...

فقد توصل المقريزي ـ من خلال تتبع الأسباب الاقتصادية للأزمات التي مرت بها البلاد ـ إلى أحد قوانين العملة التي وضعها "جريشام" بعد وفات المقريزي بأكثر من قرن من الزمان، والذي ينص على أنه إذا وُجدت في السوق عملتان إحداهما جيدة والأخرى رديئة، فان العملة الرديئة تطرد العملة الجيدة من السوق.. توصل المقريزي إلى هذا القانون عندما حاول تفسير الأزمات الاقتصادية التي كانت تمر بها البلاد، وألقى باللوم

على الحكام لتلاعبهم بالعملة وإكثارهم من ضرب النقـود الرديئـة والمزيفـة ممـا ترتـب عليـه ارتفـاع الأسـعار، واختفـاء العملـة السـليمة الجيـدة مـن السوق.

انه لأمر يثير الدهشة ويبعث على الإعجـاب بهـذا المـؤرخ الفريـد، فقـد سـبق المقريـزي علمـاء الاقتصـاد والمتخصصـين بـأكثر مـن مائـة عـام، بالحديث عن النقود، بل والتضخم في ذلك الـزمن البعيد.

الشيخ حسن العطّار

عندما احتل الفرنسيون مصر عام 1798 ميلادية، كان الشيخ حسن العطّار في الثانية والثلاثين من عمره، وعندما وصل نابليون بونابرت الى الإسكندرية كتب خطابًا موجها لأهل مصر وطبعه وأرسل منه نسخًا إلى البلاد التي يقدمون عليها تطمينًا لهم. لكن الشيخ العطار لم يصدق ما جاء بخطاب نابليون، من ادعائه بأنه جاء إلى مصر لتخليصها من حكم "المماليك المجلوبين من بلاد الأباز والجراكسة" وذلك حسب ما جاء بالخطاب الذي كتبه بونابرت.

بونابارتة المسلم الموحد بالله!

وقد نشر المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي، في كتابه الأشهر "عجايب الآثار في التراجم والأخبار"، هذا المرسوم أو الخطاب الذي جاء به: "بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك له في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية (المساواة)، السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية بونابارته.. يا أيها المصريون قد قيل لكم إنني ما نزلت بهذا الطرف إلا بقصد إزالة دينكم، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه، وقولوا للمفترين إنني ما قدمت إليكم إلا لأخلص حقكم من يد الظالمين، وإنني أكثر من

المماليـك أعبد الله سبحانه وتعـالى، واحتـرم نبيه والقرآن العظيم... أيها المشـــايخ والقضاة والأئمــة وأعيان البلد، قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون، وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا فـي رومية الكبـرى وخربوا فيها كرســي البابا... طوبى لأهـل مصـر اللـذين يقعدون فـي مساكنهم غيـر مايلين لأحد من الفريقين المتحـاربين، فإذا عرفونا بـــــــالأكثر تسارعوا إلينا بكل قلب، لكن الويل ثم الويل للذين يعتمدون علـــــى المماليـــــك فـــــي محاربتنا، فلا يجدون بعد ذلك طريقًا إلى الخلاص، ولا يبقى منهم أثر".

هكذا أنهى نابليون خطابـه بـالتلويح بالعصـا، بعـد أن استخدم الجزرة في بداية الخطـاب. وقـد فهـم الشيخ العطار ما جـاء بخطـاب نـابليون مـن تهديـد واضح لمن لا يذعن للفرنسيين، فشدّ الرحال إلى أسيوط بصعيد مصر، بعيدًا عن القـاهرة، بحثًـا عـن الأمان وتجنبًا للمخاطر المتوقعة التي يحملها معه الغـازي القـادم مـن وراء البحـار وكـان هـذا شــأن الكثير من العلماء والمشايخ في ذلك الحين.

مكث الشيخ العطار في الصعيد ما يقارب الثمانيـة عشر شـهرا، ثم عاد إلـى القـاهرة بعـد أن هـدأت العاصفة، واشتغل بالتدريس في الأزهر الشـريف. وكان نابليون قد اصطحب خلال حملته على مصـر

بعض علماء الطب والهندسة والفلك والرياضيات ومختلف العلوم الحديثة، فتعرّف عليهم الشيخ العطار، واطلع على كتبهم وتجاربهم وما معهم من آلات علمية وفلكية وهندسية، فأفاد منهم واطلع على أحدث ما وصلت إليه العلوم المدنية من تقدم في شتى مناحي العلم. كما أجاد من خلال مخالطته لهم اللغة الفرنسية إجادة شبه تامة، وفي الوقت ذاته كان يدرس اللغة العربية لمن يرغب من هؤلاء العلماء.

نقطة التحول

قاوم المصريون الحملة الفرنسية، وقاموا بثورتين كبيرتين ضدها خلال أقل من ثلاث سنوات (ثورتا القاهرة الأولى والثانية)، وكان الأزهر بمشايخه بؤرة هاتين الثورتين، وخلال أحداث تلك الفترة التي امتدت من 1800 حتى 1801، اكتشف المصريون معنى التضحية من اجل الحرية.

وفي شهر أكتوبر من عام 1801م خرجت من مصر حملة نابليون بونابرت، أول حملة استعمارية على الشرق تُرغَم على الانسحاب مهزومة، حاملة معها جثة "كليبر" خليفة نابليون في صندوق من الرصاص، وأخذت الحملة أيضًا معها كتاب "وصف مصر" الذي وضعه علماؤها، بينما سلمت للإنجليز "حجر رشيد" الذي سيؤدي فك طلاسمه بعد

سنوات الـــــــى إزالة ستار الغموض والجهل عن أعظم وأعرق حضارات الإنسان القديم..

لكن هذه الحملة تركت وراءها روح المقاومة التي أثارتها، والثقة فـــي النفس، واكتشاف الذات، بعد قرون من الاستسلام والخنوع والضياع، كما تركت الحملة وراءها أيضًا عددًا من الرجال الذين صدمهم التفوق الحضاري، الذي كانـــــت تمثلـــــه، فأيقظ التحدي عقولهم.

وبعد خروج الحملة الفرنسية، قاد هؤلاء الرجال، الـــذين شـــكلت روح المقاومـــة ضـــد الاحـــتلال الفرنسي وعيهم، حملة العصيان في وجه الباب العالي في اسطنبول، حتى وصلوا إلى اختيار الوالي الذي يريدونه، وفرضوه على السلطان العثماني فرضا، ما اضطره إلى ارسال مرسوم بتوليـة محمـد علـي باشـا واليًـا علـى مصـر. وبانتصارهم في اختيار الوالي الذي يحكم البلاد، عرف هؤلاء الرجال أيضا معنى أن تحكم الأمة نفسها بنفسها، مهما اختلفنا اليوم حول صحة اختيارهم لمحمد علي باشا من عدمه والنتائج المترتبة على هذا الاختيار، فقد كان على أية حال اختيارهم الحر.

شهرة تلاميذه التي ظلمته

كما اكتشف بعض هؤلاء الرجال قيمة العلم والحضارة، وكان بين هؤلاء الشيخ حسن العطار، فمن أقواله: "إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها"، ومن أقواله أيضًا: "مَن سَمَتْ هِمته به إلى الاطلاع على غرائب المؤلفات، وعجائب المصنفات، انكشفت له حقائق كثير من دقائق العلوم، وتنزهت فكرته إن كانت سليمة في رياض الفهوم".

وقد طبّق الشيخ العطار هذه الأقوال تطبيقًا عمليًا، فدرَّس وألَّف في فنون شتى لم تكن مطروقة في عهده، ثم وجَّه تلاميذه إلى التجديد فيما يعالجونه من أبحاث ودراسات. ومن بين تلاميذه المعروفين: رفاعة الطهطاوي الذي يعد أحد رواد النهضة الحديثة في مصر، والشيخ حسن قويدر، والشيخ محمد عياد الطنطاوي، والشاعر الشيخ محمد شهاب الدين، الذي كان مساعدًا له في تحرير الوقائع المصرية وخلفه في إدارتها.

كما نجح العطار في إدخال الدراسات الأدبية بالأزهر على يدي تلميذه محمد عياد الطنطاوي، الذي كان مولعًا بعلوم اللغة وآدابها، فبدأ يعطي

دروسًا في الشرح والتعليق على كتب الشعر والأدب، وبسبب هذا العشق صار لا يضاهيه أحد في هذا المضمار، وبسبب هذا العشق أيضًا اتهم بترويج البدع، إذ انصرف إلى الأدب بدلاً من الانصراف إلى مباحث الفقه والحديث، حتى تمنى البعض موته حين أصيب بالطاعون سنة 1836م، لكنه لم يمت بالطاعون، بل عاش حتى عام 1861، حيث وافته المنية ودفن بمقابر المسلمين في ضاحية "فولكوفو" بالقرب من "سانت بطرسبرج"، بروسيا، حيث كان يقوم بإلقاء محاضرات في كلية اللغات الشرقية بجامعة سانت بطرسبرج، وظل يعمل في التدريس بها لمدة خمسة عشر عامًا لم يغادر فيها روسيا منذ قدومه إليها عام 1840 إلا مرة واحدة عام 1844، زار خلالها القاهرة وطنطا واهتم بجمع المخطوطات الشرقية. ويعد قبر الشيخ الطنطاوي من الآثار التاريخية والثقافية في روسيا.

كما أن الشيخ العطّار هو من أشار على محمد علي باشا بإرسال تلميذه النجيب رفاعة الطهطاوي إلى فرنسا، وهو الذي وجهه وأرشده إلى استيعاب ما يمكن استيعابه من آثار الحضارة الفرنسية، وأشار عليه بتدوين كل ما يشاهده أو يعرفه أو يسمع عنه. فكانت نتيجة التوجيهات والنصائح أن ألَّف الطهطاوي كتابه العظيم "تخليص

الإبريـز فـي تلخـيص بـاريز"، والـذي يقـول فـي مقدمتـــه: "إن خيـــر الأمـــور العلم، وأنه أهمُّكل مهم... فلما رسم اسمي فـي جملة المسـافرين (كإمـام للطلبـة المبعـوثين إلـى بـاريس)، وعزمت علـــى التوجه، أشار علـــي شيخنا العطار. أن أنبه على ما يقع في هذه السفرة، وعلـى ما أراه وما أصادفه من الأمـور الغريبة، والأشـياء العجيبة، وان اقيده ليكون نافعًا في كشف القناع عن محيّا هذه البقاع".

ولهذا لم ينل الشيخ حسـن العطّـار مـن البـاحثين الدراسة الواجبة التي يستحقها، ويرى بعضهم أن شهرة تلاميذه كانت سببا في ذلك، حيـث انصـب الاهتمام عليهم، فحُجب نوره.

العلوم البرانية، والعلوم الشرعية

كان الشيخ حسـن العطـار، أحـد أهـم مـن أدركـوا أهمية الجانب الحضاري والتحدي الكامن في هذا الجانب، فوجه تلاميذه الى دراسة ما كان يسمي وقتئذ بـالعلوم "البرانيـة" أي العلـوم المدنيـة بلغـة العصر، تمييزًا لهـا عـن العلـوم "الشـرعية"، التـي كانت تعد العلوم المعتـرف بهـا فقـط داخـل الأزهـر الشريف.

فللعطار كتاب في الصيدلة ردًا على تذكرة "داود الإنطاكي"، وقد ألّف رسائل في الطب والتشريح، ولا يزال هذا الكتاب مخطوطاً في مكتبة "رواق المغاربة" في الجامع الأزهر. كما كتب أيضًا في الهندسة وكيفية عمل الإسطرلاب، وإتقان رسم المزاول الليلية والنهارية بيديه، إلى جانب مؤلفاته في العلوم الرياضية والفلكية، وفي العلوم الشرعية والعربية، كما كان العطار شاعراً كتب في كل أغراض الشعر حتى الغزل، وكتب الشعر التعليمي والموشحات، وكان محققاً للمخطوطات، وله كتب ورسائل في قواعد الإعراب والنحو والمنطق والاستعارة وآداب البحث.

في عام 1830م أصبح الشيخ العطّار شيخاً للأزهر الشريف، وهو في الخامسة والستين من عمره، وظل كذلك حتى وفاته يوم 22 مارس سنة 1835، ورغم أنه لم يوفق في إصلاح الأزهر وبرامجه وخطط الدراسة فيه كما كان يريد، ولعله لم يشأ إثارة سخط العلماء، لكنه نجح في الدعوة إلى إصلاح التعليم بالبلاد كلها. فالمدارس العالية الفنية التي أنشئت بمصر في ذلك العهد، كالهندسة والطب والصيدلة، كانت الاستجابة الحقيقية لدعوة العطار وتطلعاته ومناداته بحتمية تغيير الأحوال في البلاد.

ومن القصص المروية عنه: أنه عندما كان الطبيب "كلوت بك" يقوم بتشريح جثة في مشرحة مدرسة الطب بأبي زعبل، حاول أحد الطلاب الفتك بالطبيب، فكاد أن يطعنه بخنجره، لكن الطلاب منعوا الطالب عن فعل ذلك وحموا "كلوت بك"، فلما سمع شيخ الأزهر "حسن العطار" بهذه الحادثة، ذهب الى مدرسة الطب ووقف يخطب في الطلاب عن رأي الدين في تعلم الطب، ويشيد بفائدته في تقدم الإنسانية، فاعتبرت هذه الفتوى نقطة انطلاق للتعليم الطبي في مصر.

المصادر:

رفاعة رافع الطهطاوي: المفكر والمعلم... مجلة الآداب اللبنانية العدد السابع 1977، السنة 25.

الخطط التوفيقية لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة: تأليف علي باشا مبارك، دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، الطبعة الثانية 2003م.

الموقع الاليكتروني لدار الإفتاء المصرية، الرئيسية، تراجم وسير: الإمام حسن العطار.

بديع خيري يتذكر

في شبابي المبكر كنت عضوًا في جمعية سرية مهمتها طبع المنشورات الثورية وتوزيعها.. وقد ألف هذه الجمعية شاب اسمه "سعيد العناني".. وكنا نطبع المنشورات في مكان لا يخطر للبوليس ولا يجرؤ على تفتيشه، في عزبة الأمير إسماعيل داود بمحلة روح قرب المحلة الكبرى، ثم نوزعها سرًا في القاهرة. وكنا مسلحين، ومركز توزيع الأسلحة الخاص بنا عربة كُفْتَجي سرّيح اسمه "عفيفي"، يقف في ميدان باب الحديد، وكان يدس لنا المسدس في سندوتش كفتة، ولم نكن نخشى الأحكام العرفية المطبقة وقتئذ، والتي كانت تعاقب على حيازة السلاح بدون رخصة بالإعدام، لدرجة أنني كنت أتمرن على إطلاق النار علانية فوق سطح البيت الذي أسكنه في شارع جامع خورشيد لصق الجامع.. حتى جاء يوم اقترب فيه رأسي من حبل المشنقة، إذ كان يسكن في نفس الشارع انجليزي اسمه "مستر هاتون"، موظف كبير في ورش عنابر السكة الحديد، وكان يسكن في بنسيون صاحبته ايطالية كنا نعرفها باسم "أم بول".. وحدث يومًا أن كان يسير في الشارع وأمام باب بيتي بالضبط أصيب بطلق ناري ووقع على حائط البيت.. ساعتها توقعت بالطبع الاعتقال والتفتيش، فأخذت

المســـدس وصـــعدت إلـــى الســـطح، وربطـــت المسـدس بسـلك طويـل وأسـقطه فـي ماسـورة المجاري. وحدث ما توقعت وتم التفتيش، ولم يعثر البوليس على شيء، وصعدت إلـى السـطح بعـد أن انصرفوا لاسترد المسدس فلم أجده.. كـان قـد انزلق وضـاع فـي المجـاري، فانطلقـت إلـي "عـم عفيفي" الكفتجي وأخذت منه سـندوتش بـرونج جديد."

بين يَدَيَّ مذكرات نادرة الوجود

كان هذا جزء من مذكرات بديع خيري، ابـن شـارع المغربلين، الذي ولـد بحـي الـدرب الأحمـر فـي 7 أغسطس عام 1893، زامل وعـايش وشـارك كبـار الفنـانين، الـذين يطلـق علـيهم فـي مذكراتـه: "فرسـان هـذا الزمـان وفارسـاته.. سـيد درويـش الصريح، وداود حسني الكتـوم، ونجيـب الريحـاني الفنان الهاوي، والإخوة عكاشة المتضاربين، وعزيز عيد مدمن الفن، وعلي الكسّـار السـاذج الـذكي، ومنيـرة المهديـة الكريمـة الطيبـة القلـب، وزكريـا احمـد صـاحب الإخـاء الصـادق والقلـب المفتـوح، وبديعة مصابني العنيدة، وكمال سليم المعتز بفنه بكبرياء، وغيرهم من الفنانين الذين مـاتوا، والـذين ما زالوا أحياء وفي مشـعل فـنهم ومضـات نـور، أو انطفأ نورهم."

بهذه الكلمات يقدم بديع خيري لمذكراته التي تأخذنا عبر نصف قرن من حياة مصر بأوجهها المختلفة، فأي متابع لأزجاله أو مسرحياته، يستطيع أن يتعرف على شكل الحياة في مصر مع بداية القرن العشرين، فهو لم يترك حدثًا قوميًا أو قضية سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، إلا وأدلى بدلوه في أي مما يحدث، بأسلوب بسيط يفهمه ابن البلد والأفندي على حد سواء... فقد كانت قضايا الاستقلال والفَرْنَجة، والوحدة الوطنية بين عنصري الأمة، وقضايا التعليم والتحديث والتقدم بوجه عام، هي الشغل الشاغل لبديع خيري ولم يخل زجل من أزجاله ـ على كثرتها ـ من إحدى هذه القضايا. لقد شغلت قضايا الوطن بديع خيري منذ نعومة أظفاره.. كما انه تعامل فنيًا وإنسانيًا مع عدد لا حصر له من الفنانين والأدباء والكتاب، وتضمنت مذكراته الكثير من الذكريات حول أحداث مع العديد منهم، كان هو أحد أطرافها...

وكتاب مذكرات بديع خيري، نادر الوجود.. وقد حصلت على النسخة التي بين يديّ من أرملة الفنان الراحل "عادل خيري"، عندما كنت أحضّر لتأليف سهرة إذاعية عن بديع، زرتها فمنحتني ـ مشكورة ـ النسخة الوحيدة من الكتاب الموجودة لديها، لنسخ صورة ضوئية منه وإعادته إليها مرة

أخري، وقد وفيت بوعدي، فبعد أن حصلت على نسخة ضوئية، أعدت النسخة الوحيدة والنادرة إلى صاحبتها (أرملة الراحل عادل خيري)..

وتقع مذكرات بديع في 190 صفحة من القطع المتوسط، مقسمة إلى 17 فصلا، ونشرت على حلقات بمجلة الكواكب على مدى ستة عشر عددا، بدأت في 2 يوليو 1963، أي بعد وفاة ابنه عادل خيري بوقت قصير (بعد اقل من أربعة أشهر فقط).. لذا فبديع خيري ينهي المذكرات بهذا العنوان: "توقيع بالدموع".. حيث يقول: "واليوم وقد انتهينا أنا والصديق الحبيب "محمد رفعت" (الذي أملى عليه بديع المذكرات) من كتابة هذه المذكرات، لم نَكُ ننتظر أن نوقعها بدموعنا... دموعنا على عادل خيري... عادل ولدي الذي كنت أدخره ليتسلم من بعدي مسرح الريحاني ويرعى أبناء مدرسة الريحاني... وليواصل السير بالقافلة ومن بعده ولده، حتى لا تنطفئ أبدا أضواء مسرح الريحاني. ولم يَكُ خير ما سأورث عادل المسرح أو المال، بل الحكمة التي حرصت عليها طول حياتي: كلما اشتد الظلام، كلما اقترب بزوغ الفجر، ولكن أي فجر أرجوه الآن وقد ذهب عادل."

بهذه الكلمات الحزينة يختتم بديع خيري مذكراته..

مع نجيب الريحاني

في عام 1917، كتب أمين صدقي ــ الذي كان مؤلف فرقة نجيب الريحاني وقتئذ ــ مسرحية "حَمار وحَلاوة"، وكان نجيب الريحاني في أوج نجاحه، وقد حظيت هذه المسرحية بنجاح ضخم، فطلب أمين صدقي من الريحاني تعديل طريقة التعامل المالي بينهما، فطلب نصف إيراد المسرحية، وبالطبع رفض الريحاني هذا الطلب، وافترقا. فأصبح الريحاني في مأزق يحتاج إلى مؤلف.. جرب ثلاثة مؤلفين لكنهم لم يوفقوا في التعاون معه، وهنا تأزم موقف نجيب الريحاني.

في هذه الفترة كان بديع خيري يعمل بالتدريس، في مدرسة رفاعة باشا الطهطاوي في طهطا، ثم انتقل إلى مدرسة السلطان حسين في شبرا. وبعد أن استقر في وظيفته، كان يكتب مسرحيات لفرقة "نادي التمثيل المصري"، وكان لا يضع اسمه عليها حتى لا تضيع وظيفته كمدرس.

وذات ليلة حضر الريحاني عرض مسرحية "أما حتة ورطة"، التي كتبها بديع لفرقة نادي التمثيل المصري، بعد ستار النهاية ظل الريحاني يصفق لهم، تقديرًا لأداء الفرقة.. وتلقى "جورج شفتشى" ــ صديق نجيب الريحاني الذي دعاه لحضور المسرحية ــ تهنئة الريحاني بالنيابة عن

الفرقة.. وعندما سأله نجيب الريحاني عن اسم مؤلف المسرحية، قال له "شفتشي: "انا المؤلف، هذه المسرحية من تأليفي".. وبرر لبديع فعلته بأنه بذلك يحافظ له على وظيفته كمدرس، وقال لبديع: "انت تكتب وإنا أبيع للريحاني، ويا بخت من نفع واستنفع، النص بالنص يا عم، واهم قرشين يجولك علاوة على ماهيتك كمدرس، وفي الوقت نفسه ما تضيعش وظيفتك.. اتفقنا."

وافق بديع خيري على هذه الصفقة فلم يكن أمامه بديل، فمن ناحية يرغب بل يرحب بالتعاون مع العملاق ــ وقتئذ ــ نجيب الريحاني، ومن ناحية أخرى لم يكن بديع يريد أن يخسر وظيفته كمدرس. يقول بديع في مذكراته: "قدمنا ثلاث مسرحيات، الاسم لجورج شفتشي والتأليف لي"، إلى أن وشى أحد أصدقاء شفتشي به عند نجيب الريحاني، نتيجة خلاف دب بينهما، وعندما سمع الريحاني القصة قال للواشي صديق شفتشي: "كده... أنا قلبي كان حاسس، اعمل معروف هات لي بديع خيري ده حالاً."

ويتابع بديع خيري: "عندما التقيت نجيب الريحاني، أبدى إعجابه بقلمي، واتفقنا، وكتبنا العقد.. وكان هذا اليوم هو يوم مولدي الفني، 18 أغسطس سنة 1918.

ومن عجائب المصادفات أن يكون هو نفس اليوم الذي ولدت وجئت فيه للدنيا، 18 أغسطس 1893..... بعد أن نجحت مسرحياتي مع الريحاني قررت أن أستقيل من خدمة الحكومة، وانقطعت للتأليف المسرحي من يومها للآن... وأعلن اسمي كمؤلف للرواية الثالثة (استعراض 1918 ـ 1920)، المسرحية التي كانت تعرض أحداث سنة 1918، والأحداث المنتظرة مستقبلا في سنة 1920."

بديع يكتب مقدمة مذكرات الريحاني

في العام 1959، وبعد وفاة نجيب الريحاني بعشرة أعوام بالتمام والكمال (توفي في 8 يونيو 1949) أصدرت دار الهلال مذكرات نجيب الريحاني، التي كان كتبها الريحاني بنفسه ـ قبل وفاته ـ عن ذكرياته وسيرته الذاتية.

وبعد مقدمة صاحب المذكرات (الريحاني) جاءت مقدمة بديع خيري للمذكرات..

وفيها يقول: "ليس غريبًا أن تفكر دار الهلال (بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاة نجيب الريحاني) في إصدار مذكراته التي خصها بها في حياته، وكتبها لها بقلمه، ونشر هذه المذكرات،

وفي هذه المناسبة بالذات، تكـريم للفـن الأصـيل في شخص كرس حياته لفنه."

ويتـابع: "حينمـا دعتنـي دار الهـلال أن أقـدم لهـذا الكتاب عن مذكرات أخي وصديقي الراحـل نجيـب الريحاني، غرقت في لجـة مـن الـذكريات، وعـادت ذاكرتي إلى أيامنا الماضية، ومـرت بخـاطري صـور الكفاح، وأدركت أنه ليس من السـهل علـى المـرء في بعـض الأحيـان أن يعبـر عـن نفسـه، خصوصـا حينما طالعت المذكرات، ووجدت أن الراحل الكريم قـد وفـى كـل نقطـة حقهـا، بصـراحته المحبوبـة وأسلوبه الشائق. ومن بين صفحات مذكراته برزت حياته الحافلة التي كرسها للمسرح وحده، وبرزت صور الكفاح حية نابضة بالحياة."

ثم يستطرد في ذكر مآثر الريحـاني، وجوانـب مـن سـماته الشخصـية، ومواقفـه فـي شـتى جوانـب الحيـاة والفـن علـى السـواء، كمـا عايشـها، وهـو القريب شديد القرب منه..

فكتـــب يقـــول: إن صـــورة الريحـــاني الممثـــل الكوميـدي، الـذي أجبـره جمهـوره إجبـارًا علـى المسير فـي الاتجـاه الكوميـدي، لـم تكـن الصـورة التـي ترضـي طمـوح الريحـاني فقـد كـان يحـب الدراما* وربما كان ذلك بسـبب الظـروف القاسـية التي مرت بـه. وكـان علـى قـدر مرحـه وفكاهتـه،

يعاوده الحزن في فترات متقطعة لمأساة أصغر إخوته "جورج الريحاني" الذي اختفى قبل موت الريحاني بسنوات طويلة لغير ما سبب واضح.. وقد ظل سبب اختفائه حتى آخر عمر الريحاني ـ ولا يزال ـ لغزًا غامضًا تكتنفه الإشاعات، فمن قائل إنه أسلم وانضم إلى جماعات الصوفية، ومن قائل إنه ترهبن واعتكف في أحد الأديرة!

وعن التزام الريحاني الصارم بفنه، كتب يقول: كان نجيب من فرط احترامه لفنه يعتكف في غرفته بالمسرح قبيل التمثيل بنصف ساعة على الأقل، ولا يسمح لإنسان ـ مهما كانت الظروف ـ أن يعكر عليه عزلته المقدسة. وفي عزلته هذه كان ينفرد بنفسه ليهيئها لمواجهة الجماهير، ويتقمص الشخصية التي سيمثلها، ويندمج في الدور الذي سيؤديه.. وكنت إذا رأيته وهو يغادر غرفته الخاصة في طريقه إلى خشبة المسرح لأداء دوره، خلته من فرط الانفعال شخصًا آخر، والواقع أنه يكون في تلك اللحظة شخصًا آخر فعلاً، يكون الشخصية التي سيؤدي دورها في مسرحيته..

وقد بلغ من حب الريحاني لفنه أنه لم يطق اعتزال المسرح بناء على مشورة الأطباء عام 1943، وكان الدكتور "روزا" قد نصحه بالابتعاد عن المسرح ستة أشهر حرصًا على صحته، فما كان

مـن الريحـاني إلا أن قـال: "خيـر لـي أن أقضـي نحبي فوق المسرح، من أن أموت على فراشـي"!

وكانت للريحاني مبـادئ فـي التمثيـل ينفـرد بهـا، فقـــد كـــان رحمـــه الله يعتنـــق مبـــدأ فـــي "الميزانســين"** تخـالف المـألوف.. كـان يتـرك للممثل الحرية في تغيير ما يشاء منها كـل ليلـة، حسبما يقتضيه تكييـف الممثـل لميلـه واتجاهاتـه وفهمه للشخصية التي يلعبها، ولكنه مع ذلك كان يتمسك بحرفية ألفاظ المسرحية (النص المكتوب) دون تغيير أو تبديل!

وبالنســبة لموقـف الريحـاني مـن قضـيا الـوطن، والقضايا الاجتماعيـة، يقـول بـديع: الريحـاني كـان وطنيًا ثائرًا، جعل من المسرح منبرًا للوطنية.. كان الرجل الذي عالج السياسة بالفكاهة، وفتح عيون الجمـاهير إلـى ســوء حالهـا، وهـاجم الإنجليـز وأعوانهم فـي مسـرحياته وتهكـم علـيهم، فلقـي من عنت الاستعمار، واضطهاد السـراي، الشـيء الكثيـر. وفـي هـذا يقـول نجيـب الريحـاني فـي مذكراته:

"حـين رأيـت مـن الجمهـور المثقـف، ومـن عامـة الشـعب هـذا الإقبـال المنقطـع النظيـر، رأيـت أن أســتغله اســتغلالاً صـالحًا، وأن أوجهــه التوجيــه النافع، فرحت أنقب عن العيوب الشـعبية، وأبحـث

عن العلل الاجتماعية التي تنتاب البلاد. ثم أُضمِّن ألحان الروايات ما يجب من علاج ناجع لمثل هذه الأدواء. كذلك راعيت في كثير من هذه الألحان أن تكون أداة لإيقاظ شعور الجمهور، وتعويده حب الوطن، وإعلاء شأنه، والمحافظة على كرامته، والتغني بمجده الخالد.."

ويستطرد بديع في وصف جانب آخر من جوانب شخصية الريحاني فيقول: لعل إنسانية الريحاني تظهر وتتجلى في أبرز صورها في جهوده التي بذلها في أواخر أيامه، لحث الحكومة على إقامة ملجأ للممثلين المتقاعدين، وحين شيد بيته الذي مات قبل أن يسكنه، كان يريد أن يخصصه بعد وفاته لهذا الغرض النبيل، ولولا أن المنية عاجلته، لكان قد أتم الإجراءات الرسمية، وتم له تحقيق أمنيته.

اما عن حياة الريحاني العاطفية، فيقول بديع: من بين النساء كانت صديقته "لوسي دي فرناي" هي التميمة السعيدة التي صحبت عشرته لها السعادة في الحب والمال. وفي هذا يقول نجيب (والكلام هنا على لسان بديع نقلاً عن الريحاني): "كانت لوسي صديقة لي، وكانت عونا في الشدة، ومساعدا يشد أزري، ويشدد عزمي،

ولئن ذكرت في حياتي شيئا طيبًا، فأنا أذكر أيام زمالتها، وعهد صداقتها."

ويفيض بديع في ذكر مآثر صديقه ورفيق مشواره، فيقول: ولعل نجيب هو الممثل الوحيد، بل رئيس الفرقة الوحيد، الذي كانت تسره إجادة أفراد فرقته. وكان بعد أن يفرغ من أداء دوره يقف بين الكواليس، ويظل يشجع أفراد فرقته بالإشارات والإيماءات، بل يقدم هدايا شخصية للمجيدين. وكانت الصحف تتهمه بالكسل، ولكنه لا يعبأ بالاتهام ويقول: "خير لي أن أواجه الجمهور بمسرحية واحدة كاملة، من أن أقدم له عشر مسرحيات ضعيفة، أو فيها مواضع ضعف".. ولهذا السبب كان يهتم جدًا بالبروفات، وكثيرًا ما كان يقضي شهرًا كاملاً في إجراء التدريبات على فصل واحد من فصول مسرحياته.

وفيما يتعلق بالأوضاع المالية للريحاني، يذكر بديع في مقدمته: ان الريحاني الفنان لم يكن يعبأ بالمادة في سبيل الإتقان، وكثيرًا ما أنفق، وأغرق في الإنفاق، وركبته الديون، في سبيل إخراج مسرحية يريد أن يبلغ بها حد الكمال. كان لا يبخل على فنه أبدًا، بل لقد كان يتبرم من امتلاء المسرح في الليالي المزدحمة، فقد كان يرى أن هذا الازدحام يحرمه من الجو الهادئ الذي يتيح

له الإجادة.. كان يفرح للجمهور المحدود، وكانت مواهبه بالفعل تبرز وتتجلى وسط المتفرج الهادئ، مع ما في ذلك من الفوارق المادية بالنسبة إليه كصاحب فرقة. وكان يشترط ـ لدى تعاقده مع المتعهدين والجمعيات الخيرية ـ ألا تباع تذاكر أعلى التياترو في الأوبرا بمصر، أو الهمبرا*** بالإسكندرية، على أن تقتطع قيمة ما تدره هذه الأماكن من الأجر الذي يتقاضاه شخصيا.

ويختتم بديع مقدمته لمذكرات الريحاني بالكلمات التالية: "هذه المقدمة إذا ليست إلا مجرد خواطر وذكريات وصور، جمعتها أشتاتًا من ذاكرتي، صورة من هنا، وصورة من هناك"... "وإن لهذا الكتاب لمعنى جليلا، معناه أن الريحاني الفنان لم يمت، ولكنه خالد في قلوب محبيه، معناه أن الفنان الصادق لا يموت."

* في الزمن الفائت، كانوا يستخدمون كلمة "دراما" ــ ومازال البعض إلى يومنا هذا ــ للتعبير عما يصطلح عليه "تراجيدي"، رغم إن الدراما تضم الكوميدي والتراجيدي

** الميزانسين: ترتيب حركة وأوضاع الممثلين على خشبة المسرح

*** الهمبرا: دار عرض سينمائي ومسرحي بالإسكندرية

ابن إياس

هو صاحب كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، الذي يبدأ بذكر تولي السلطان الأشرف قايتباي مقاليد الحكم سنة 872 هـ (1468 م)، ويستمر في سرد أحداث التاريخ حتى سنة 928 هـ (1522 م)، وعلى هذا فابن إياس كان المؤرخ الذي عاش وعاين أحداث هذه الفترة وكتب عنها، وهي الفترة التي شهدت نهاية حكم المماليك البرجية، بعد هزيمة السلطان قنصوة الغوري في موقعة مرج دابق، ثم اجتياح جيش العثمانيين بقيادة سليم الأول الأراضي المصرية، وإلقاء القبض على السلطان طومان باي، وشنقه على باب زويلة، لتصبح بعدها مصر ولاية تابعة للخلافة العثمانية.

المؤرخ الذي لم يخش السلاطين

وكان لابن إياس ممتلكات كثيرة تدر عليه دخلا كافيا جعله يستطيع أن يتفرغ للكتابة والتأليف ونظم الشعر. وما يدلل على ثرائه ما جاء بالجزء الرابع من بدائع الزهور في وقائع الدهور:

"ومن الحوادث الشنيعة في هذا الشهر (يقصد شهر جمادى الآخر سنة 914 هـ) أن السلطان (يقصد السلطان الغوري) شرع يُخرج إقطاعات

أولاد النـاس، وربمـا تعـرض للـرزق الإحباسـية والأوقاف، فأخرج نحـواً مـن ثلاثمائـة إقطـاع ورزقـة من غيـر جنحـة ولا سـبب، وصـار يـنعم بهـا علـى المماليك بمكاتبات، فحصل للناس الضرر الشـامل ولاسيما أولاد الناس..... وكانت حادثة مهولة لـم يُسمع بمثلها، وأنـا مـن جملـة مـن وقـع لـه ذلـك وخرج إقطاعي لأربعة من المماليك....."

وهنا بيت القصيد فقد كان إقطاعه من الكبر بحيث يكفي لتوزيعه على أربعة مماليك، وقد أوردت هذا النص لأشير إلى مسألة مهمـة تميـز سـلوك ابـن إيـاس كمـؤرخ، فقـد كـان مـن المـؤرخين القلائـل الذين لا ينتظرون رضا السلطان، وفي هـذا نشـير إلى قـول الـدكتور مصـطفى زيـادة ــ الـذي حقـق وكتب حواشـي وفهارس مؤلف ابن إيـاس الأشـهر "بدائع الزهور فـي وقـائع الـدهور" ــ حيـث يقـول: "كان ابن إياس حرا في كتابته، أمينا في رسالته، لا تؤثر فيه عوامل الظروف أو المناسـبات، صـوفي النزعـة، يحفـظ الجميـل ولا يحمـل الضـغينة لأحـد أساء إليه، بل يعترف بالحق ويشيد به".

التأريخ شعرا

عَوّل على كتب التاريخ وَاغْـنَ بهـا / فكـم تُهـزّ لهـا الأعطاف من طرب

ولا تُعوّل على من قال مِن سفهٍ / السيف أصدق إنباء من الكتب

وهو هنا يهجو المتنبي الذى نظم:

السيف أصدق إنباء من الكتب / في حده الحد بين الجد واللعب

ويصفه بالسفه حين قال هذا البيت الذي يَرُد التاريخ إلى السيف وليس الكتب

ويقول ابن إياس في السلطان العادل طومان باي (الأول)، عندما ثار عليه المماليك وقتلوه: "وكان السلطان العادل ملكا جليلا مهابا، لكنه لما ولي السلطنة ظهرت منه أمور فاحشة وأخرق في سفك الدماء وقتل الأمراء.... وقد قلت فيه:

العادل السلطان لا تعجب له / فيما جرى منه بتغير الدول

أعماله ردت عليه بما جنى / والدهر قد جازاه من جنس العمل

وعندما أصاب السلطان الغوري مرض في عينيه، وكان قد ظلم العباد وجار على حقوق بعض المماليك، قال فيه:

سلطاننا الغوري غارت عينه / لما اشترى ظلم العباد بدينه

لا زال ينظر أخذ أرزاق الورى / حتى أصيب بآفة في عينه

وعندما رفع الغوري المظالم عن الناس ورد الحقوق لأصحابها كتب يقول:

بعافية الغوري قُرّت عيوننا / ونال الورى منه بلوغ المقاصد

وقالوا به عين أصابت لعينه / فلما شُفي غارت عيون الحواسد

وقال فيه أيضا:

قد أظهر العدل في الرعايا / وأبطل الجور والمظالم

هذا الذي عنه أخبرتنا / طوالع النجم والملاحم

وهكذا كان ابن إياس ينظم الشعر تارة لنقد السلطان وأخرى لمدحه، حسب ما يراه من عدله أو جوره. وهذا ما نلاحظه في كتابته عن جميع السلاطين الذين عاصرهم والذين توالوا على حكم مصر مدة حياته، فإنه يسجل لهم محاسنهم كما يَعد عليهم مساوئهم، ومن اللافت أنه كان يكتب بحرية ودون أن يتعرض له أحد من السلاطين الذين كان ينتقدهم.

وابن إياس على كثرة ما ذكر من أحداث وأخبار تجده لا يترك حادثة دون أن يذكر ما قيل فيها من

شـعر سـواء لـه أو لغيـره مـن الشـعراء. فمؤلفـه الشـهير "بدائع الزهور في وقائع الدهور" يحوي مـا يقرب مـن خمسـة آلاف بيـت شـعر، يخصـه منهـا أكثر قليلا من خمسـمائة وخمسـين، أمـا البـاقي فلشعراء آخرين عاصرهم أو روى عنهم شعرهم.

لغة ابن اياس

وعن لغة ابن إياس وأسلوبه يقـول الـدكتور محمـد مصطفى: "كان لابن إياس أسـلوبه الخـاص الـذي يمزج فيه العامية بالفصحى، شأنه في ذلك شأن غيره مـن المـؤرخين فـي القـرن الخـامس عشـر، ونلاحـظ أن ابـن إيـاس فـي كتابتـه لا يعبـأ كثيـرا بقواعد الإملاء، فهو ينقط التاء المربوطـة فـي آخـر الكلمـات مثـل الخليفـة والقلعـة أو يهمـل نقطهـا، فيكتبهـا "الخليفـه" و"القلعـه"، وأحيانـا يكتـب تـاء التأنيـث مفتوحـة عوضـا عـن المربوطـة فـي مثـل زوجـة القاضـي أو نفقـة البيعـة فيكتبهـا "زوجـت" و"نفقت"، أو يخلط بين الجمـع والمفـرد فـي مثـل الذي والذين، أو المذكر والمؤنـث فـي مثـل التـي والذي، أو الرفع والجر والنصـب، إلا أن هـذا الخلـط وتلك الأخطاء قلما نجدها في شعره".

أُرْجوزة ابن إياس

وقد توج ابن إياس تأريخه كله بقصيدة من تسعين بيتا يقول عنها: "... إنها أرجوزة لطيفة تتضمن أسماء السلاطين هم وأولادهم على الترتيب، ومن ولي منهم من مبتدأ دولة الأتراك وإلى نهاية حكم دولة الجراكسة». ونلاحظ أنه لم يسمها قصيدة، بل أسماها أرجوزة، حيث يبدو أنه التزم – والله أعلم – رأي الأدباء القدماء الذين اتفقوا على حرمان المزدوجة من شرف التسمي بالقصيدة. فقصيدته، أو أرجوزته، لم يلتزم فيها بقافية موحدة للقصيدة كلها كما جرت العادة، بل تتنوع فيها القافية من بيت إلى آخر على نسق المزدوجة التي يقفى فيها كل شطرين بقافية واحدة تخالف قافية الشطرين السابقين واللاحقين.

ويبدأ ابن إياس أرجوزته بهذين البيتين:

فأول الترك أتى المعزّ / ثم ابنه ووافته الغُزّ

فهو عليّ لا على في القدر / أيامه مغدوقة بالشرّ

وهكذا يستمر قي ذكر تتابع السلاطين وأولادهم حتى يصل إلى دولة المماليك البحرية فيذكرهم سلطانا سلطانا، ثم دولة المماليك البرجية أو الجراكسة، حتى يصل إلى ذكر آخر سلاطينها:

وبعـده قـد جاءنـا ذا الغـوري / فسـلطنوه سـرعة بالفور

أقـام بالملـك سـنين عـدّة / والنـاس فـي ضـنك وقاسوا شـدّة

وقبـل نهايـة الأرجـوزة يكتـب ابـن إيـاس هـذه الكلمـات: "فـإن عُـدّ الأشـرف قنصـوة مـن جملـة السلاطين فيكونوا به ثمانية وأربعون سلطانا، هم وأولادهم، والله أعلم بمن يجيء من بعد ذلك".

ثم ينهي الأرجوزة على هذا النحو:

وجاء طومان باي يسعى الملك / من بعده وليس فيه شك

ثم سليم شاه ولي مـن بعـده / وضـل فـي أيامـه عن رشـده

ثم ولي الباشا المسـمّى أحمـدا / فثـار نـارا فـي الورى ما أخمدا

ومن أبدع مـا كتـب ابـن إيـاس تلـك الأبيـات التـي كتبهـا حـين دخـل العثمـانيون مصـر واحتلوهـا إذ كتب:

نوحوا على مصر لأمر قد جري / من حـادث عمـت مصيبته الورى

زالت عساكرها مـن الأتـراك فـي / غمـض العيـون كأنها سـنة الكرى

الله أكبر إنها لمصيبة / وقعت بمصر مالها مثل يُرى

لهفى على عيش بمصر قد خلت / أيامـه كـالحلم ولى مدبرا

وفى أواخر عام 1523م رحل ابن إياس تاركا أعمالا خالدة في كتابة التاريخ بأمانة وشـرف.

المحتويات

حواديت العثمانلية 5
شارع طومان باي .. وشارع سليم الأول 6
حواديت بونابرت 23
عندما ضج المصريون بالدعاء 24
حواديت الصهاينة 48
الدكتور مشرفة 49
اغتيال سميرة موسى 59
قرش شيدمي 69
التاريخ المنسي .. والمسكوت عنه 77
القديسة فيرينا 78
البشتيلي 86
حواديت عربية 93
ابن خلدون 94
ابن المقفع 103
الحجاج بن يوسف الثقفي 109
حواديت المحروسة 114
المقريزي 115
الشيخ حسن العطار 122
بديع خيري يتذكر 131
ابن إياس 144

هذا الكتاب

نحكي في هذا الكتاب قصصا وحواديت من المنطقة العربية ومصر..

وقد قسناه الى ستة اقسام، نتناول في كل قسم أحداث وشخصيات تنتمي لعنوان القسم..

ففي حواديت العثمانلية، نستعرض ما حل بالمحروسة على مدى ثلاثة قرون، من خراب جراء الغزو العثماني، وما حاق بها من تخلف، وحرمان من ثرواتها، وتجريد من عقولها وأرباب صنائعها، وتجريفها ثقافيا..

وفي حواديت بونابرت، نتابع أثر حملته على المحروسة، وثورة القاهرة الأولى، ونرجئ الحديث عن ثورة القاهرة الثانية إلى قسم التاريخ المنسي.. والمسكوت عنه لنقص حدوتة البلشي قائد هذه الثورة الذي أهمله التأريخ..

وتتوالى أقسام الكتاب: من حواديت الصهاينة.. إلى حواديت عربية.. وننهي تجوالنا في صفحات التاريخ بحواديت المحروسة.